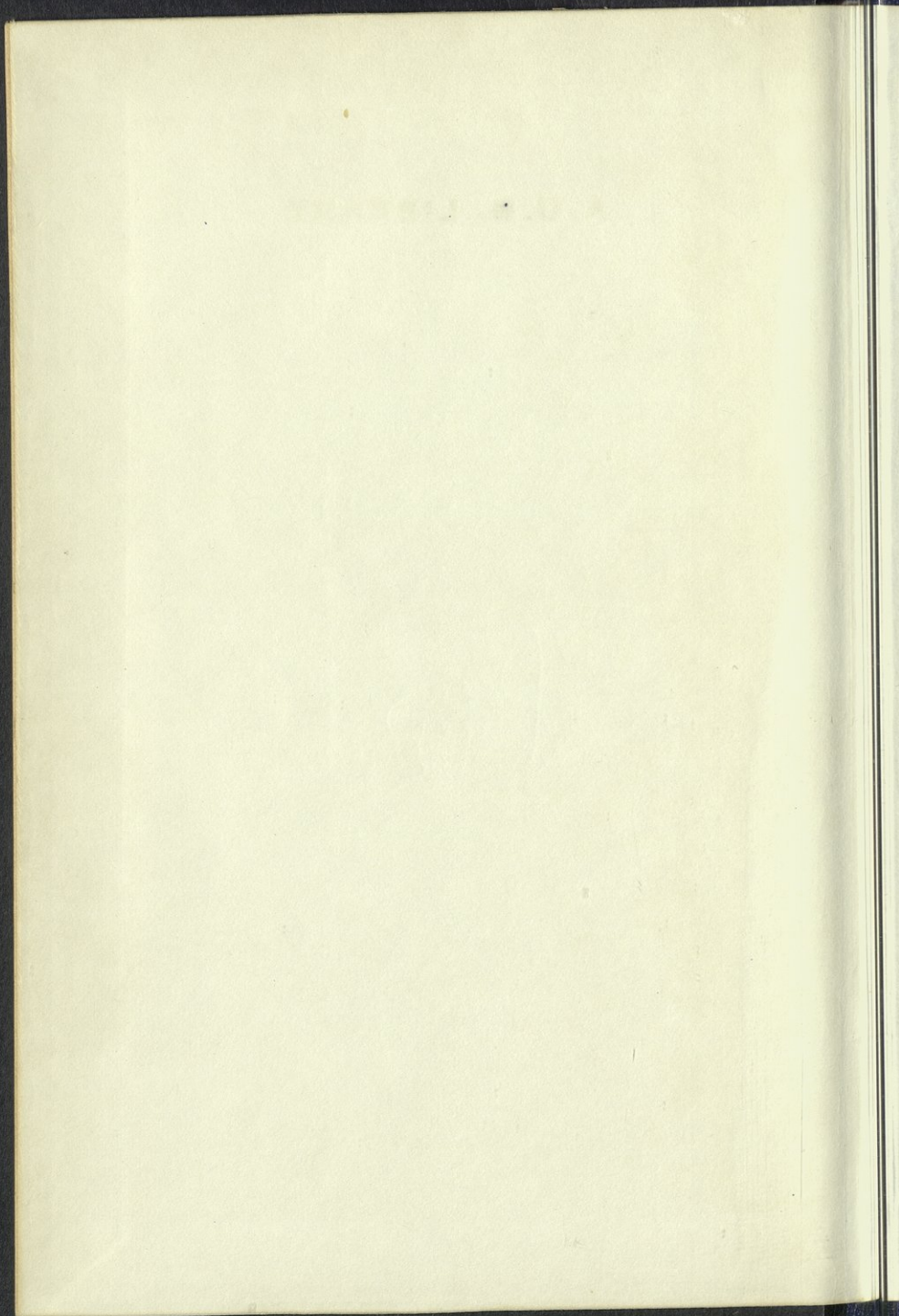
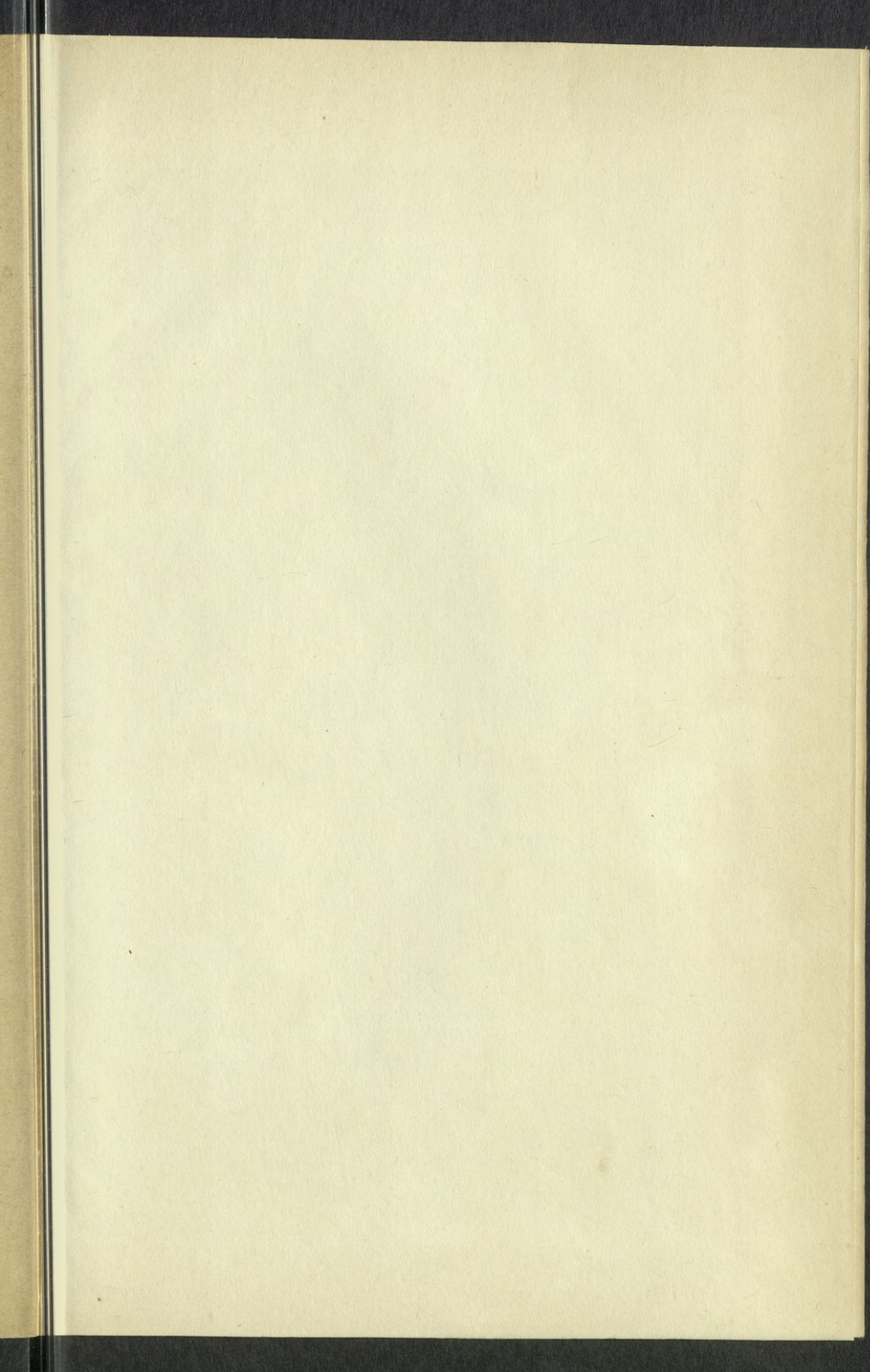


75
A. U. B. LIBRARY





مطبعة الاتحاد
تجاه التياتر الكبير

Vol. 1
July 1940

892.73
H4114



لطفی حیدر

892.73
Ha596uA

عمر افندی

58120

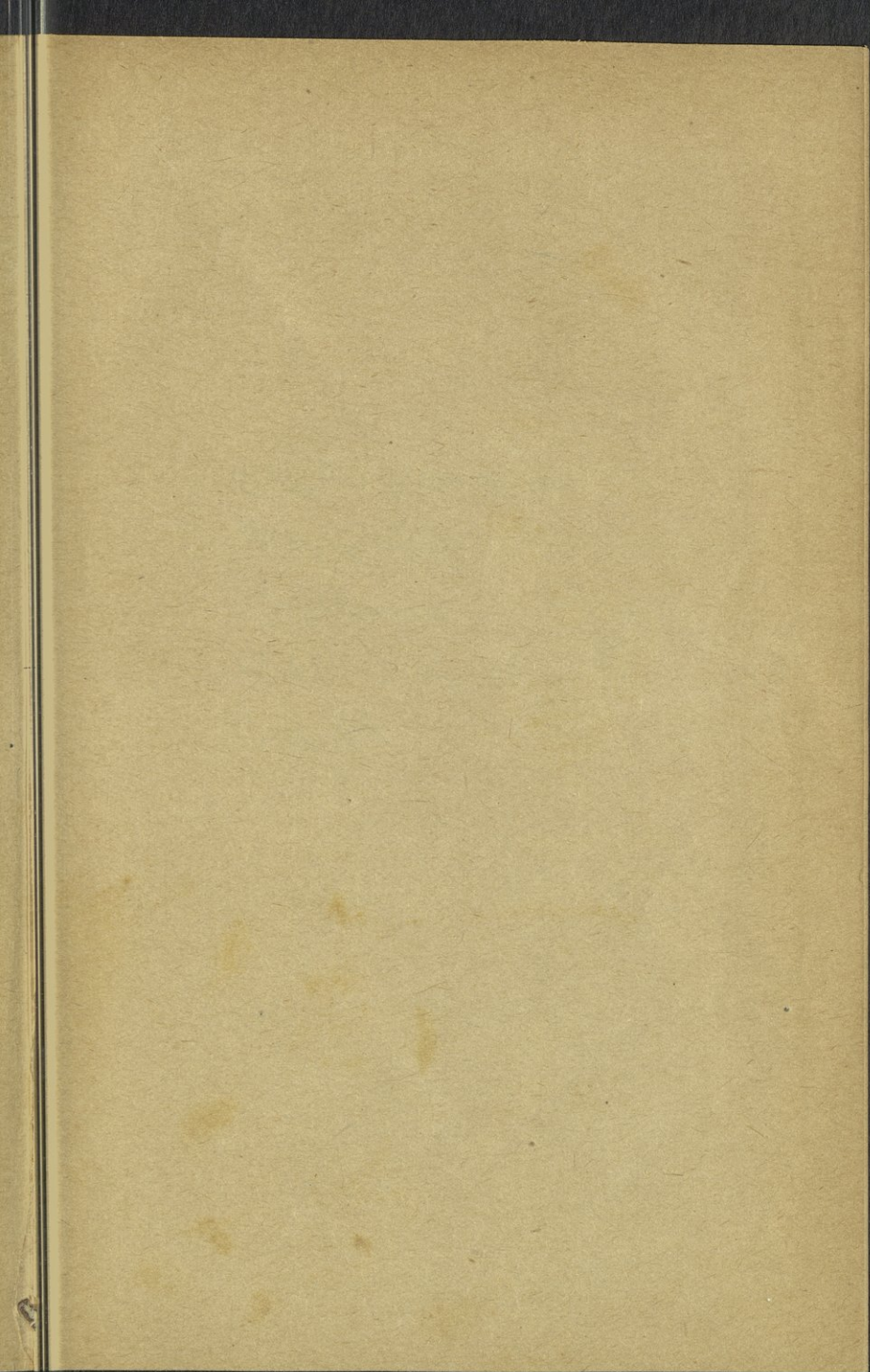
مَنْشُورَات . الْمَكْتُوف .

بيروت * ١٩٣٧

copy 1946



الى التي كفت لها عزاء على الحياة
فلما صرعتها المنون
واضجعتها الترب يبرى
صارت الى العزاء على الموت
الى اصفى فاطمة



بقلم عمر فاضوري

لا اخشى لومة لائم اذا قلت ان مؤلف هذه القصة قد خطا بالقصص العربي خطوات ، بل عرج به درجات ، نحو مرتبة الكمال .
 ... وانا ايضاً كنت اؤثر لو مهدت لهذا «الحكم» ببيان مفصل او تحقيق مجمل ، فلا ابتديء حيث يجب ان اتمهي . ولكن ما العمل وقد جاءت هذه الفاتحة كمطلع القصيدة ، عفو الخاطر والقلم ؟
 ولا حاجة الى التنبيه على ان ما نعينه بالقصص العربي هو فن من فنون الادب لا يكاد يمت بصلة الى ما وصل اليه من نوادر واخبار وملاحم واساطير في كتب العرب ، ولا الحكايات سواء الطوال ام القصار التي انطوت عليها مجموعة «الف ليلة وليلة» . انما نعي «القصة» بدلوها الطريف ، الاستفادة عناصره من اداب الغرب الحديثة ، حتى يمكن عدها بدعة في ادبنا العربي على اطلاقه ، ولكنها قد تكون او كد الوسائل واقصر السبل الى اشراكنا فيما يدعونه بالثقافة العالمية ، فيسمع لنا صوت في النشيد العام الذي تعيب في امواجه شتى الالخان متعارفة متألقة .

✱

في هذه القصة من سيرة مؤلفها الشيء الكثير . واي كاتب لم تكن بواكيره — زهراً وثمرات — من قطاف بستانه ، يملأ بها اردانه ، فاذا فرغ من ذلك البستان ، او حسب انه فرغ ، هجره وتسلق

الجدران مغيراً على حدائق الاهل والصحب والجيرة وسائر الناس ؟
 اليس طبيعياً ان يكون الموسم الاول من حصاد العمر ؟ لا لقرب
 المتناول ويسره فيحسب ، بل ان ثمة عاملاً اعظم خطراً وابلغ اثرأ ،
 هو ان الفتى في مستهل حياة الفكر والشعور يكون كالمغلوب على امره ،
 وهين «انانية» من نوع خاص ، تكتنفه وتملك عليه له وحسه ، اذ
 يخال ان هذه الاحداث لم تمر باحد قبله ولن تمر باحد بعده : من احب
 حبه ، وتعذب عذابه ؟ هل جالت هذه الخواطر في غير رأسه هو ، او
 اضطربت هذه الشهوات في غير حواسه هو ، او قامت هذه العقبات في غير
 طريقه هو — هو دائماً ؟ عمرك الله ؟ هل عرفت مثل هند وعمر
 افندي ؟ وهكذا يكون الفتى من تجربته الاولى الفريدة ، بل من
 انانيته المشتركة ، في سجن ، يحيا بها متأكلاً مجترأ ، حتى اذا ضاق
 ذرعاً فاستطاع ان يرسلها قصيدة او قصة سرّي عنه كالنفس الصعداء .
 والى هذا مرد الاعتراف في النصرانية ، والبوح او خطاب «الخليلين»
 المردد في الشعر العربي القديم ، وكتب الاعترافات الشائعة في آداب
 الامم . أليس قتل عمر افندي خياله في المرأة ، لبدأ حياة جديدة ،
 رمزاً الى تلك الحاجة في نفس الانسان ؟

*

لامر ما عدل مؤلف هذه القصة عن ضمير المتكلم ، في شيء من
 الحفر الشرقي او الكبر الذي يحظر علينا ، كما يقول في احد فصولها ،
 «فتح هذا الصندوق المغلق ... او هتك هذا الحرم المغوم بلهات
 الاكبد ، المعمور بالباطل والغرور الموروثين من اقدم اجيال الحياة»

ولكن المؤلف لم يعتمد ، رغم هذا ، ايها ان السكلام عن رجل غريب ، وليد خياله واختراعه . كلا ، فالقصة قصة عمر افندي «البالغ الان الثامنة والثلاثين ... نراه وقد خلف الشقاء طيوفه في عينييه الحالمتين ، وترك الالم حولها آثاراً من مساحب اذيله ...» كما يقدمه المؤلف المينا ، آخذاً بيده في رفق وعطف وحنين . ومنذ الاسطر الاولى التي تقع فيها على عبارة « وهو يذكر ... ولا يذكر فيما عدا ذلك شيئاً » من حالات طفولته ، تبين ان العمدة في هذه القصة على « الذكري » . اما الرسائل الموشاة بايات من الشعر الغزل ، رسائل عمر الى هند راجياً شاكياً باكياً ، ومتفلسفاً في بعض الاحيان ، فهي « اشياء » واقعية ، الصق بمادة الحياة من الذكري ، طرحها المؤلف في زوايا كتابه ، على عطفات الطريق ، كاشلاء الماضي . « ارجو ان تحرق هذه الرسالة ، ولا بأس ان تضعيها في حنن السيكارة الذي تقدمينه لي ، لارى عواظي المشتعلة رماداً تذريره في الهواء يد المرأة الناعمة . » اشد ان هذه « صكوك » لا مدخولة ولا منحولة ، صحيحة ولا اقول صادقة ، بما عليها من طابع الفتوة الساذجة ، وبما فيها من « مضخات الصوت » على السواء . واذا كان في طبيعة الانتاج الادبي ان يحمل الاديب على استغلال تجربته وذكرياته يوم يكتب للناس ، فان ما في هذه الرسائل « الاصلية » من بيانات وخطايبات دائرة على محور العواطف الطنانية ، يحمل على الظن ايضاً انها كتبت في وقتها لتنتشر فيما بعد ، وهي من غرائب المصادفات بين حياة الادب وادب الحياة . (اريد الاشارة الى ما في طبيعة « الحادث الادبي » من عجب عجاب ولم اتعمد رد اي عجز على اي صدر ، فهو من عمل البهلوان .)

اجل، ان العمدة في هذه القصة على الذكري ، كما اسلفنا القول ،
ذكرى احداث وحالات نفس شغلت حيزاً من الزمان والمكان . ولكنها
ليست بالذكري «الحام» لا يهملها الا ان تفرغ جرابها كما تيسر وتنفض
كفها ، حينما تكشف لنا عن اخيلة ضاوية الجسم ، باهتة اللون ، خافية
الجرس ، تكون بالقياس الى الحقيقة الباطنة كرجع الصدى بالقياس
الى الاصوات ، او كالظلال بالنسبة الى معالم الاشياء . بل هي الذكري
اللبقة الصانع ، أطالت التفكير فيما وعته ، ولجت في تقصيه ، وامعنت
في تحليله ، حتى استشفت دخيلته ونفذت الى جوهره . فاذا في ايدينا
قصة تلبض حياة ، وتفيض ضياء فتبهر وتروع ، لا حكاية تحكى او
خبر يروى ، فتقبله بشيء من الرضى وكثير من عدم المبالاة ، ثم
يعود الى اصله اذ يعفي عليه النسيان .

ولا ينصف المؤلف ولا يفهم حقه من يغفل الناحية السيكولوجية
من كتابه ، اعني درسه الاشخاص ، ووصفه ما ينشأ ، متعاقباً او
متلازماً ، من مختلف اطوارهم في تلك «الازمة» التي عقد حولها قصته ،
وعنايته بتصويرهم في حقيقتهم الظاهرة والباطنة على السواء . هؤلاء
اناس من لحم ودم ، لا من حجر وورق ، احياء جدّ احياء ، يتحركون
ببواعث طبيعية لا ميكانيكية ، وكأنما تصرفهم يد الاقدار . ويزيد
متعناً بالتعرف اليهم اكتشافنا العوامل البعيدة والاساسية في حياتهم ،
بعد انتباهنا الى العوامل المباشرة او الطارئة . وكأنها اخيلة الظل
سمت هذا الوجود المصطنع على الستارة البيضاء ، تصرف امورها
فيه اصبع خرقاء ، فخرجت كلح البصر من الستارة ، وانطلقت
بشراً سوياً ، واخذوا يتسللون في القاعة بيننا ، ونحن شهود . وهو

سحر الفن هو ، يؤتيه الله من يشاء من عباده .

*

وددت لو يتسع هنا المجال لدرس شخصية عمر بطل هذه القصة ، او شخصية خصمه وقرنه هند ، في فضالهما المستمر ، غياباً ووجهاً ، حتى الصفحة الاخيرة من الكتاب ، بل بعدها (اليس هذا الكتاب نفسه من اطوار ذلك النضال؟) ضارباً الامثلة ، معززة بالدلة على براعة المؤلف في تصوير اشخاصه ، ورسم خطوط الوجوه ، ناهيك النفوس . ولكن هذا التصوير لا يبرز في هذه القصة دفعة واحدة ، بل ينشأ ويكتمل في سياق الحديث ، وان الخطوط لتزداد دقة ووضوحاً على مر الايام وكر الاحداث ، فكأنها الاشياء تخرج من خفاء الظلام رويداً رويداً كلما تعالى النهار ، بما يشبه البعث كما يقول خليل مطران شاعر العصر في قصيدته العصماء « المساء » . ولكني لا اجد بداً من الاشارة الى بطل الرواية الثالث الذي لم يسمه المؤلف باسمه رغم انه ليس دون عمر وهند شأنًا . كيف ؟ وهو العملاق المائل لابصارنا في بداية القصة ، مكشراً عن انيابه قرماً وسخراً ، يقين ان الغلبة له في الحتام ، وان لكل شيء نهاية الا هو فلا ينتهي ظفـره — اعني الزمان . الاكول الشروب ، الجبوت اللبوت ، غراب البين ، الزمان المسيطر على الكون وانسانه — العالم الاصغر . عند قدميه تنحطم الشهوات الجاحمة ، وفي قبضته تنطفئ العواطف المضطربة . نحس اثاره في خور القوى وفي غضون الوجه ، وفي الزوال والانهدام ، وفي النسيان الذي ندعوه تأديبا او تشاعراً : العزاء . وما العزاء الا موت جزء منا ، موت عاطفة كنا لا نحيا الا بها ولها .

الم نعلم ، منذ تعرفنا الى هند ، انها « سلخت الرابعة والثلاثين ،
والمرأة الحسنة تجتاز في هذا العمر — كما يقول المؤلف — اخطر
ادوار حياتها ؟ فهي على القمة تلقي نظرها على الماضي فتود لو ترجعه
الى قبضة يدها ، وتتطلع الى المستقبل فتري لجة الزمان تبتلع ايامها ،
وتبتلع معها شبابها وجمالها . فتقف مذعورة لا تريد ان تتقدم خطوة
واحدة . ويجمع حب الحياة الى خوف الفناء ، فتدعو اليها كل
حيويتها ، فتجلى رائعة من روائع الوجود ، وتود لو يقف الوقت
عن الحركة ، وينعدم الزمان ، وينفجر قلبها ليسع في منحنياته وشغافه
كل خليجات الحياة . »

كبرت كلمة جرى بها قلبي اذ قلت ان المؤلف لم يسم ذلك
البطل باسمه . وهو قد ذكره باسمه في بضعة اسطر مرتين ،
وكنى عنه مرة ، وذكر ابعاضه : الماضي والحاضر والمستقبل ، ووزيره
العمر ، كأنها بطانة هذا الملك الجبار . فالاصح ان يقال انه لم يسم
بطولته .

وكأنما اراد المؤلف ان يعتذر لعمر عن غرامه بهند وهي على
شفير الهاوية ، فقال انه « أخذ بجمال فانتته قبل ان يعمل في جمالها
هذا التحليل النفسي . » ولعله عني ايضاً التحليل الحسي الذي ما فتئ
الزمان يعمل سلاحه في قسائتها . وفي هذا التحليل المزدوج ، الظاهر
المادي في شخص الحبيبة ، والباطن الروحي في نفس العاشق ، كلمة
السر في القصة ، ومفتاح باب الفن فيها .

وفي فصل آخر من فصول الكتاب ، اذ عمر وهند في ربيع الحب
بينما الطبيعة في خريفها « سقطت ورقة توت صفراء في حضن هند ،

فاخذتها وتأمّلت فيها ، ثم رفعت بصرها الى الغصن الذي يعلوها ، وحاولت عبثاً أن تتبين موقعها . ولما ردت بصرها اليها قدفت بها الى الارض . فقال عمر ان هذه الورقة العليقة الصفراء توحى الى اشياء . فقد احسست لوقعها على الارض صدى حزيناً في نفسي كأنهدام الحياة . ما الفرق بيننا وبين الاوراق ؟ تلك تبعثرها اريح ونحن تبعثرنا المنيا ، غير انها تعود في الربيع القادم في حلة من الشباب الرائق ، اما نحن .. » فارتاعت هند وقطعت عليه حديثه المنذر بالشؤم قائلة : « اصمت ، اسكت ، لا اريد ان اسمع شيئاً عن الربيع والموت ، عن الماضي والمستقبل ، بل حدثني عن الحاضر » .

وقبيل ختام القصة في آخر حوار بين عمر وهند ، نسمع الفتى الغر يقول للمرأة الناضجة « وقد تجمعت الالهانة زبداء على شذقيبه فرمى به وجهها : اغربي عني يا امرأة ! ان الاربعين سنة تجتمع كلها في وجهك الان ، فينهزم امامها بحر جمالك ، وتظهر غضونك وتبدو بشاعتك . لقد مات الماضي فاعدت ارى عليك رائداً من طيوفه ، واقفر روضك فلن يرف جناحي بمغناه بعد اليوم » . وكأني بالزمان سخر هذا الافندي ليدفع المرأة المسكينة الى قرار الهاوية ، وكان في سنة الكون ان يجهز علينا أثر الخلق لدينا ، ليكون ذلك ابلغ في نكايه الطبيعة العاتية .

*

لقد عمرت هذه القصة باشخاص آخرين ، من معلم الكتاب الذي غرق رأسه في عمته الى الاذنين ، حتى اختفت قرعته الاشعرات في مؤخرة رأسه كنفلول المعركة ... يجلس قرب الباب ، الى جانبه

نعله ، يليه نعال الاولاد » ، فابى قاسم البستاني في قيصره المثني الصدر
المسبول الى الركبتين ، وسراويل زرقاء شد عليها بزنا من القطن
الاسود ، على رأسه لبادة سوداء ، وفي قدميه احذية مسمرة ، عرفناه
ليلة زفافه وهو يتزوج ثالثة « برضى ام قاسم التي لم تلد الا ولداً واحداً
على ان الفلاح بحاجة الى اولاد يعينونه على اعماله الكثيرة ، في الفلاحة
والزراعة وبيع الغلة وغير ذلك » ، الى المومس « نينا » التي لقيها عمر
وقد انقلبت برقية من رقى الحب ملاك رحمة وطهر ، كما حدث لاحدى
اخواتها في قصة دستويفسكي : « الجريمة والقصاص » . لقيها فاذا بها « قد
لبست رداء من الحرير الساتان الاسود ، ولم تزين ولم تتطر ، فبدا
وجهاً بلونه الطبيعي وقد غلته غلالة من الهم ، اما عيناها فكأنهما
لاصقتان الى حلم بعيد تعيان اذا انقشع وتطمئنان اذا بقي لهما . وكان
في وقتها شيء من الكبرياء المتهدمة توحى احترامك للسيدة الواقفة
امامك ، وتوجب عطفك عليها » . ولم اذكر الا نقرأ من اشخاص
هذه القصة العامرة بهم وبغيرهم ، في تلائم وتناسب بالعين حد الاتقان .

*

بقي ان اقول كلمة في اسلوب الكتابة .

« نهض عمر من فراشه وتطلع الى اخيه ، فوجده في غفوة من
الحياة ، يحلم تحت دفق النور ، ليس توقظه جلبته . وكانت الاشعة
المتفرجة تزيح عن وجهه كآبة الحلم ، فتكشف عن محيا امتلاء شابا
وصباحة ، فاذا انحسرت رأيت كأن رؤى جميلة وقاتلة تتجمع في معاهد
اهدابه فتزها نزل عمر الى الحديقة فوجدها لا تزال مخضلة
بانفاس الصباح ، وقد حشا الورد اكمامه من درر الطل الراش وضحك

من بلاهة الاغصان الباسقة الجافة . واخذ البلبل بصوت خافت تكاد تسمع لثائه في الحانة ، ينثر اغانيه في جوانب الحديقة ، ينتقل من فنن الى فنن ، حتي اذا حط على الوردة الحمراء ارتفع صوته بالغناء يمازجه شجى تحس فيه كأن قلبه على لسانه . وما زال صوت الصادح يرتفع حتي ملكت روعته جوانب الحديقة النائية ، ثم انقطع فجأة وسقط الطائر الصغير جثة هامة الى الارض ... واخذه عمر فاذا في جنبه المبيض جرح يدمى ، فتجمع الاسى في عينيه دمعة هي كل ما يملك ، لكن الدمعة الحارة الطافية لم تنطلق ، لان رصاصة انطلقت في الغرفة حيث ترك اخاء الجندي منذ هنيئة ، ترافقها صرخة الم : انتحرت !
ومن فصل آخر :

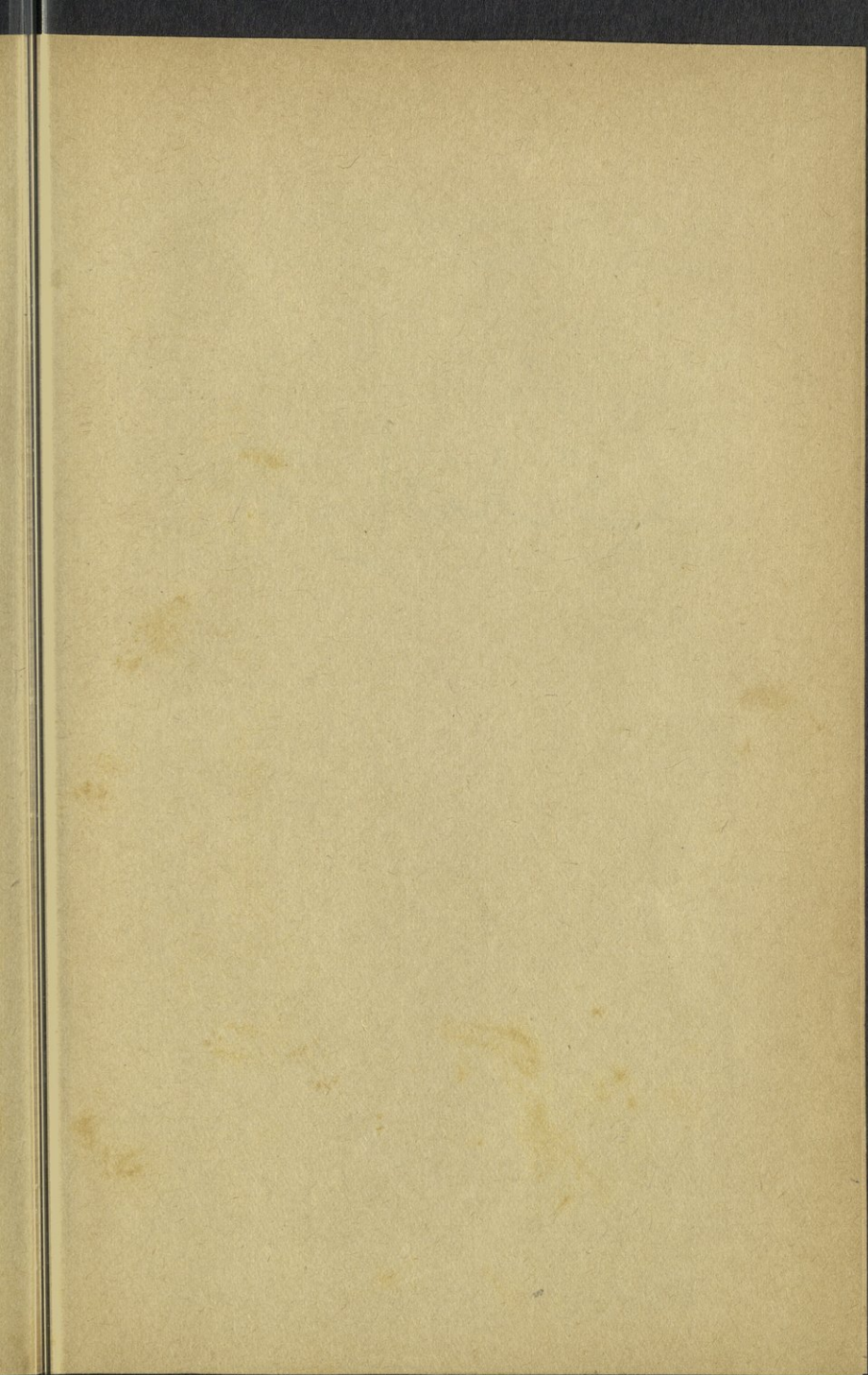
« هل اتى عليك هذا الاسراء الذي لم تحس له جلبة ، ولم تتغير عليك فيه المشاهد ، حتى اذا اخذ النوم يتسلل من جفنيك ، طافت عليهما روى اشتبهت عليك ، فرحت تتحسس جوانب فراشك ، فاذا هي اشياء غير ما الفت ، فتعود تدور بعينيك على ما حولك ، فترى الاشياء تخرج من ظلالها وتسترد الوانها ، فتعرف انك في عالم جديد لا عهد لك به من قبل ، فتضطرب » .

هممت ان اقول كلمة في اسلوب الكاتب ، فاذا بي اقدم مشالين هما قطعتان من البيان الرائع في عمقه وانبساطه ، تتزواج في طوايا كلمه المتخيرة الطبيعية والعاطفة ، وتجاري جملة الرائقة الحياة والحركة في الكون وفي النفس ، محاطة بهالة من نورانية الشعر الابريز . وقد يكون خير ما في هذا الكتاب اسلوب مؤلفه .

من حسن طالعي اني سئلت تقديم طرفة نادرة في القصص فبادرت
عن طيب خاطر ، وانا اعدّها زلفى الى الفن وفضلا من الله ، اذ من
حسن طالع الادب العربي في هذا العصر ، وفي هذا القطر ، ان يشهد
نشأة كاتب كمؤلف هذا الكتاب ، فهو وامثاله حقيقون ان يبلغوا
بالقصة الحديثة مرتبة السكمال .

عمر فاضورى

عمر افندي



في الكتاب والمدرسة

هو الآن في الثامنة والثلاثين من عمره ، بوجه لا ينم
هذه السن ، لكن الشقاء خلف طيوفه في عينيه
الحالمين ، وترك الالم حولها اثاراً من مساحب اذياله ، فترى
فيه شباباً مطمئناً ، لا يكاد يتوثب حتى تنغر جراحه .

ولد عمر في مدينة بعلبك التاريخية في السنة ١٨٩٨ من
ابوين لا يملكان ثروة ، وفي بيت كريم المحتد ، وكانت
العادة أن يرسل الولد الى الكتاب ليدرس القرآن ، واراد له
ابوه ذلك ، فبعث به الى الشيخة ام حسن ، وهو يذكّر
انه كان يجلس الى قراءة الف باء مع اترابه ، متربعين على
الحصير في الشتاء ، وعلى الارض اذا قبل الصيف واشتدت
الهجرة ، ولا يذكّر فيما عدا هذا شيئاً ، أكان يحفظ من
من الف باء ام لا يحفظ . وكانت ام حسن تنقاضاه «الخميسية»
وهي اجرة الاسبوع يدفعها التلميذ يوم الخميس قبل عطلة

الجمعة ، وشيئاً غير هذا في الاعياد ، وكلاهما زهيد وتافه .
والشيخة تعيش اسبوعها مما يأتيا به هو لاء الصبية ، فهو
وان كثر لم يتجاوز «البشلك» .

وكانت ام حسن ناعمة البال ، تصرف قليلا من الوقت
على الاعتناء بالتلاميذ ، حتى اذا انقضى اجل معلوم لا يتجاوز
الاسبوعين ، قفز واحد هم الى «عم» فاستحقت ام حسن ،
هدية اما دراهم او شيئاً من مؤونة البيت مع كثير من الشكر .
ويظهر ان عمر كبر على كتاب ام حسن ، او انه لم يجد
فيه الفائدة التي كان يرجوها له والده فبعث به ابوه الى
كتاب اعلى درجة ، فعمله شيخ لا شيخة ، وعلى يد السيد
محمد سيختم القرآن بمدة قصيرة . ومن الحق ان الكتاب
الجديد يختلف عن السابق ، فتلاميذه اكثر عدداً وفي زواياه
مفارش محشوة بالخرق العتيقة تكتلت فيها هناك وهنا ، على
حصر تكاد لا تتميزها عن الارض لطول عهدها بالانصاق
اليها ، وقد تربع السيد محمد ، على مطرح اكثر سمكا من
غيره ، واغرق رأسه في عمته الى الاذنين ، حتى اختفت
قرعته ، الا شعرات في مؤخرة رأسه كفلول المعركة ،
واتخذ مقعده قرب الباب ، ليسهل عليه الدخول والخروج

متى يريد ، والى جانبه نعله ، يليه نعال التلاميذ ، وللموسر نعل ، اما الفقير فله قبقاب .

بدأ الشيخ بالدرس فارتفعت اصوات التلاميذ معاً بالبسملة ، واخذوا بترتيل الآية الاولى ، يحنون جسومهم مع كلمة وينهضونها مع كلمة ، فتراها جائية ذاهبة ، فاذا ضرب الشيخ بقضيبه على الارض ، توقفوا عن الاهتزاز ، واخذوا قسطهم من الراحة .

وكان عمر ذكياً فاعجب به الشيخ وضرب له اجلاً قصيراً يختم فيه القرآن ، والشيخ يرغب في هدية ينالها جزاء تعبهِ وكما دنا الاجل دنت الهدية من يديه ، ومضت ثلاثة شهور ، فاذا عمر يختم القرآن عن ظهر قلب ، ذلك ما قاله الشيخ لو الده .

ومن الحق ان عمر كان يستظهر بعض السور الصغيرة ، ولكنه ينسى بعد الختم ما كان يستظهر .

واحتفل الكتاب بختم عمر القرآن ، فخرج صبيته صفوفاً ، كل صف من اثنين يعقبهما اثنان ، ومشى عمر في المقدمة ، وعلى رأسه طربوش احمر ، ربط اليه رش من الفضة ، يختال في غنباذ من الحرير ، القلم خيط خاصة لهذا اليوم السعيد ،

وجاؤا الى بيت عمر فأنشدوا :

يا بدر الشام بلغ سلامي
الى محمد خير الانام

وزع عليهم الملبس ، ورجعوا ادراجهم يحملون الهدية *
قطعة من الدما ، تصلح غنباراً لقامة الشيخ القصيرة .
وانتقل الى المدرسة الرشدية يقطع مراحلها في رأس
الصف ، ولم يمر بمحادث مهم ، وهو يذكّر ان رقه كان عشرة
وبالتركية «اون» وكان التلميذ يدعى برقه دون اسمه
وبالتركية ، وان هذا الرقم ما يزال مدوناً على بعض الكتب
التي نالها جائزة .

وكان كثيرون من انساب عمر يتلقون علومهم في
دمشق وبغروت واستانبول ، ومنهم من كان في اوروبة ، وقد
حملت العدوى عمر على اللحاق بهم .

وكان العرب يطالبون بالاصلاح ، وكانت حركتهم
ترمي الى مطالبة العثمانيين بمنح الولايات العربية استقلالاً
ادارياً ضمن نطاق الدولة ، وكان بعض الشباب الخالص
يتكلمون همساً بفكرة الاستقلال التام ، والانفصال عن
الترك ، وكانت الدولة العثمانية ترغب في تهدئة النفوس ،

والعالم تضطرم تحته مواقد نار الحرب ، ففتحت مدارس تلقن العلوم باللغة العربية ، فكان في دمشق المدرسة السلطانية وكان في بيروت مدرسة مثلها .

التحق عمر بمدرسة دمشق وعلى رأسها مدير ممن قدر لهم فيما بعد ان يخدموا القضية العربية خدمات جلي . وكان الشعور العربي يفيض على المدرسة يحميه المدير ويوطيء له ، وكان طبيعياً ان يتملك هذا الشعور عمر في حداثة سنه .

وانفجر بركان الحرب العامة ، فاذا الخدمة العسكرية تقتنص شباب العرب المنور ، واذا دمشق تحفل بروح الشباب الوثاب ، من هؤلاء الجنود الغضاظ ، يتدربون على الجندية الحشنة ، ليدافعوا عن ارض الوطن المهددة بالفتح ، وكان ويلات الحرب والاقتراب من الموت ، نهت في هذا الشباب شعور الحياة الساجي ، فاشتدت فيهم عاطفة العروبة ، ونمت الى جانبها ، بفعل الطبيعة ، فكرة التخلص من نير الترك ، فراحوا يرون في الدفاع عن بلادهم دفاعاً عن حوزة الترك وشداً في عضدهم ، فكانوا شوكة في جانب الجيش لا يطمئن اليه ، وباتت قيادة الجيش منهم على حذر ، واخذت تعمل على تبديد شملهم وباتوا وهم يرقبون الفرصة السانحة لخدمة

وما هي الا سنة حتي تغير حال المدرسة . فطلب مديرها العربي للخدمة في الجيش ، وأبدل به مدير تركي . وانتقلت بالسلامة من حي «ستي زيتونه» الى باب توما ، الى بناية للراهبان ، كانت مدرسة للبنات فصادرتها الدولة ، واتخذت منها مكاناً لمدرستها بعد ان تركت مؤخرها للاخوات .

اشترك الترك في الحرب العامة ، وانحازوا الى جانب الالمان . وهددت اطراف المملكة التي تحوي البلاد العربية بالخروج من ايديهم ، وتنبهت فيهم فكرة « التركية الخالصة » بعد ان نفصوا ايديهم من العناصر الاجنبية عنهم كالعرب والارمن والروم ، فاخذوا يعملون على اضطهاد هذه العناصر وتقتيلها وترحيلها ، ولم يقتصر عملهم على الساحات العاملة ، بل تعداها الى المدارس ، ولكن بشكل اخف .

ويذكر عمر انه جوزي مرة ، بحجزه في المدرسة يومي الجمعة من اسبوعين متواليين بـ «ايكي اذنسر بلا عفو» لرده على تفقد معلم اللغة التركية — وكان يقوم بالنظارة الليلية غالباً — بكلمة «لييك» عوض «افندم» ويذكر انه تقبل

الجزاء نفسه و «بلا عفو» ايضاً لزعم المدير انه لم يحيه التحية
 الرسمية ، عند مروره من مكان الى آخر في المدرسة ،
 وكان يمر في اليوم الواحد عشرين مرة او اكثر ، وتنبكي عمر
 «بلا عفو» ولولاها لكان يمكنه ان يفندي الجزاء «بامتياز»
 ولكن يخرج يوم الجمعة الى المدينة ويتخلص من الاسر بين
 جدران المدرسة السوداء ، ولم يكن الليل باهدأ من النهار ،
 ففي دراسة بعد العشاء ، وهو وقت خصص للمطالعة من
 الساعة الى التاسعة ، كان عمر يتلهى بقراءة الكتب العربية
 وكان كلما جاء بكتاب جديد حجزته الادارة عنه وعاقبته
 بالحبس ، فاذا قام الطلاب الى نومهم توزعوا في قاعتين
 خصصت الواحدة بالكبار والثانية بالمراهقين . فاذا امتد
 الكرى الى العيون وعقد اهدابها باصابعه ، تيقظت في
 المدير «وصفي» شهوانيته ، فراح يدب الى قاعة النوم ،
 ينتقي منها الغرائق ، وكان كثيراً ما يفسد عمر عليه عمله ،
 اما بتساعله ، او بابدائه حركة تدل على انه يقظ يرقب ،
 حتى اضطر المدير لنقله الى القاعة الثانية وتهديده بالطرد .
 واشتدت العداوة بين عمر والمدير ، ولكن عمراً كان
 يتمتع بعطف اساتذته وبمحبة الخدم الذين كانوا يعرفون

لنسيبه المدير السابق يده عليهم ، وتعاون عمر والخدم على وصفي فحملوا الوالي خلوصي بك على ان يأتي المدرسة ذات ليلة ويفاجئه بين الغلمان والكوؤوس . اطارت هذه الحادثة « وصفي » بالرغم من كون خاله من زعماء الاتحاديين ، وصارت المدرسة تدار من قبل « شفيق » المدير الثاني وكان تروكياً حقوداً .

كانت الصبغة التروكية ملكت المدرسة ، بعد ان تركها قسم من التلامذة النابيين والتحق بكلية « صلاح الدين » التي اسسها جمال السفاح في القدس ، وابتعد عنها بعض الاساتذة الذين يناصرون الفكرة العربية ، واخذ المدير يعمل على التنكيل بعمر . وفي ذات يوم من السنة ١٣٣٢ التأم مجلس المدرسة وطرح قضية طرده فيما طرح من البحوث ، ويظهر ان المدير لقي معارضة بالطرد القطعي فانقرط عقد المجلس دون ان يقطع بالامر ، وجاء استاذ التاريخ ينصح عمر بترك المدرسة بالاذن ، قبل ان يستفحل الشر ويستحيل دفعه .

وفي هذه الآونة كانت الحكومة تعمل على ترحيل العائلات السورية النافذة الى الاناضول ، وكانت عائلة

عمر فيمن تناوله النفي ، ذهب عمر الى وكيله يقص عليه
خبر طرده الاسود ، وانه لا يزال هنالك مجال لاتقائه باخذ
الاذن ، فارسل الوكيل ان والدته عمر مريضة خطيرة ، وانها
تطلب ابنها لتراه . وراح عمر يحمل كتاب الوكيل فقابل
مفتش المعارف وكان يعطف عليه ، فاسر اليه هذا ان
يخرج بسرعة من دار الحكومة ، وان لا يرجع اليها ، وان
الاذن يصله الى المدرسة ، ورجع عمر مطمئناً فاذا بالمدير
يدعوه اليه ، حتى اذا صار الى حضرته ، قال له بلهجة ملوءها
التهكم والحقد ، اعطيتك اذنًا ابدياً ، فضب على
اشيائك .

اقلت عمر عربة الى دائرة الشرطة ، وبعد اسئلة اجاب
عليها باختصار ، تلتف مدير البوليس وقبل منه كفيلا ريثما
يلتحق باهله الى المنفى ، وعبثاً حاول البحث عن الكفيل
المنشود ، ففي تلك الساعة السوداء ، كان الاب ينكر ابنه ،
والصديق يهرب من صديقه . ولما عجز اخيراً عن تقديم
الكفيل ، حجزوا عليه في اوتيل القدس قبالة دائرة البوليس ،
وبعد ايام ثلاثة كان في بعلبك .

وكان سليم افندي مفوض شرطة بعلبك صديقاً لابي

عمر ، انقذه من النفي ، وعرف عمر انه لم يطلب للنفي ولكن
حمد « شفيق » عليه نفذ فيه بحكم اقوى من الطرد واقسى

بين الجند والعسائر

كانت بعلبك في هذه الايام مقراً للواء الثاني عشر
وكان يكثر فيها الجند احياناً حتى تكاد تضيق به ، يقيم
في الشكنة الموجودة بين البساتين ويحثل الابنية الكبرى
من المدينة ، وفي معسكر انشأه شرقيها اخذ قسماً من
المقبرة وقسماً آخر من البيادر ، وكان مبنياً من الاخشاب
المصفحة بالحديد ، مقسماً الى بيوت قام بعضها الى جانب
البعض الاخر بانتظام ، بينها طرق ، وامامها جنائن نصبت
فيها اشجار السرو والصفصاف والصنوبر ، وزينت باشكال
من الورود تتشابه وتختلف ، وانقسمت هذه البيوت الى
محلّتين تفصل بينهما طريق فسيحة اقاموا في وسطها ثلاثة
احواض جروا اليها مياه اللجوج العذبة ، يستقي منها العسكر ،
ويقضي حاجاته ، ويستقي دوابه .

وكان هذا العالم المنعزل بروحه عن حياة الشعور
واللذة ، والذي لا يغمض فيه جفن للجندي ، الا على اشباح
الحراب والبنادق ، وان نأى عن ساحة الحرب ، اراد ان
يلطف من قساوة العيش العسكري ، او يروي رغبات
الترف الجائشة في قلوب ضباطه ، فاقام من وراء هذه المساكن
بركة تطفر المياه من وسطها ، فترتفع في الفضاء ، حتى اذا
حاذت مستوى المصنع المستدير ، المشيد بالحجارة البيضاء
الى علو ستة امتار ، هبطت يوشي رشاشها وجه البحيرة
الهاديء بفقايع تتسع دوائر ثم تتلاشى ، او تنطفئ للفور ،
وسيجوها بجواجز من الصفصاف ، يقوسون الغصن ويغرسون
طرفه في الارض ثم يضعون عند رأس الاول رأس الغصن
الثاني الى ان ينتهي محيط الدائرة ، فاذا جاء وقت الربيع ،
ونبتت قضبان طرية على الغصون ، ورأيت ظلالها تستحم
في الماء البارد ، والشمس تلتفح حرارتها ، اخذ بلبك هذا
المنظر الفاتن ، فاذا مالت الشمس عن كبد السماء ، اخذ
الضباط يتوافدون على البحيرة حتى تمتليء بهم جوانبها
الخضراء ، فيعشثون ويلهون .

حقاً ، ان حياة الجندي الجافة لا يعرفها هؤلاء الذين

يعيشون بعيدين عن ساحات الوغى ، لقد كان اللواء في
بعلبك مدعواً لتأمين الارزاق للجيش ، او قل للاقسام
القريبة منها ، فكان يجي الحصاة العشرية عيناً من الحبوب
الناجحة ، ولكنه كان يجيها ضعفين وثلاثة ، فيرهق الملاك
والمزارع الذي لا يجد بين يديه على بيدر ، بعد استيفاء
الحصاة العشرية ، ما يعوض عليه بذره ، ويقوم بتسديد
الضرائب الاخرى التي لا مهرب من ادائها .

هذه كنيسة الكاثوليك قد اتخذت حصلاً للغلة
فسكتت اجراسها الرنات ، ووضبط الجامع ايضاً وعطلت ساحته من
المصلين ولم يعد صوت المؤذن الجميل يخرق احشاء الصباح
الساдр داعياً البشر الى ذكر الخالق . ولم تكن الاغلال
وحدها عرضة للمصادرة ، فان هذه الجائحة الحربية ، كانت
تجرف كل ما تجده من انعام واموال ، فالبقر والمعزى والجمال
والخيل ، حتى الحمير ، والمحظوظ من يبقى له شيء يستعين به
على اطعام عياله ، لقد ارتفعت اسعار الحاجيات ارتفاعاً
فاحشاً ، وغزا الجوع البشر يفتك فيهم فتكاً مريعاً ، وبقيت
لقمة الجيش مقدسة لا تجرأ الايدي على الدنو منها . ولكن
هذه الاموال تقسدها ايدي العامة الهزيلة من الجوع ، وتحترمها

نفوسهم الخائرة من الجبن ، كانت تمتد اليها ايدي الضباط
والموظفين بالنهب والسارقة ، ويمذرونها على موائدهم جزافاً
بين الكس والطاس او يرمونها تحت اقدام الغواني اشباعاً
لشهواتهم الجامحة ، بينما الجندي العامل يئن من الجوع ويرتجف
من البرد .

لقد كان الموت أرأف بالجنود المساكين من اسيادهم ،
فكان يقبضهم اليه بالعشرات ، وكانوا هم يسهلون على الموت
مهمته او يوفرون على الاحياء الم الحياة ، فيقذفون بهم احياء
امواتاً الى بئر حفروها بالقرب من « قبة دورس » تتصاعد
منها الارواح الى السماء مختلطة بروائح الجيف النتنة تشهد
عليها اعمدة القبة الثمانية ولا تتبرم ، تلك كانت نهاية الجنود
الذين سلموا من روؤوس الحراب ورصاص البنادق فاودى
بهم الجوع والعري والحلمى .

لم تكن الحالة لتطاق في بعلبك ، فاعتزم ابو عمر
الانتقال بعائلته ، الى قرية تبعد عنها ثمانية كيلو مترات
الى الشمال حيث يملك بعض العقار ، فانتقلوا ، وكان
اتصالهم بالمدينة موفوراً لقصر المسافة بينهما ، لكن مكثهم لم يطل
لان اخا عمر الاكبر كان جندياً ملزماً على البقاء في المدينة

لاداء الخدمة العسكرية ، ولم تكن الحياة في القرى اهدأ
منها في المدن ، لانها عرضة لعبث الجند ، ومطرح لفوضى
التحكم ، فاذا جاءها الدركي في السلم ليبلغ رسالته ، لم
يرض الا ان يكون طعامه ديكاً مسحناً قد يكون كل
فرح دجاجات القروي المسكين ، فكيف بها في
الحرب .

يعيشون في قضاء بعلبك عيش العشائر التي لم يعرف
النظام اليها سبيلاً ، عشائر هي بقايا الحكم الاقطاعي ،
غمرها شعور التمرد ، فابتعدت روحها عن قبول القوانين ،
ولم يكن هذا التمرد على القوة الظالمية ، او نزعة استقلالية
فهم اشد الناس بعداً عن هذه الصفات السامية ، وانما هو في
مثل الانطلاق الكائن في حياة البداوة ، ممكنه فيهم مراس
السيوف والرماح والخيول ، وقواه وعورة الارض ، فرأيتهم
اتخذوا من الانجاد قرى لهم ودساكر وتجانفوا عن سكنى
البقاع المنحطة . ومن طبيعة هذا العيش ان ينمي فيمن يألفه
غريزة الاعتداء ، فاذا مرت جلبة من الاغنام في طريقها الى
الجنوب ، الزموها لدفع الاتاوة ثم عادوا يسرقون منها في
الليل ما وكل اليهم حراسته في النهار .

وكانت كثيراً ماتوؤدي هذه الحوادث وامثالها
لاضطراب جبل الامن ، فتهتم الحكومة وترسل خيالتها
تطارد السارقين ، ويفر هؤلاء من الاصطدام بها وهم يحترمون
هيبتها ويجاذرون بطشها وتعود الخيل منتفخة البطون وقد
جاست القرى الامنة ، ويعود اولئك الى حالهم الاول ، فما
جاء الوقت الذي نتحدث عنه ، الا وفي البلاد من هؤلاء
اشقياء استفحل امرهم ، اتقنوا الرمي بالرصاص وامعنوا في
التقتيل والنهب حتى خشي الناس شرهم المستطير ، وما زالت
للحكومة هيبتها في هؤلاء الى ان خرج عليها رهط من
الشباب المتعلم .

حاذر الترك ان يكون العرب في ديارهم عوناً
للفرنجة عليهم ، فعملوا على تقتيلهم وترحيلهم باساليب شتى ،
ففي الوقت الذي كان رجال العرب يعلقون على اعدوا
المشائقي في بيروت ودمشق ، كانت العائلات العربية في
مختلف المدن السورية في طريقها الى الاناضول تسير الى المنافي
التي اعدت لها ، وقد انصاع كثيرون لهذا الترحيل تجنباً
لبطش الجيش ، واحتفاظاً بمجرات النساء ورعاية للاطفال ،
وعده نفر قليل ظلماً لا يحتمل وآثروا القتل فوق صخور

الوطن العزيزة ، على الموت الوضيع في البلد الغريب . وكان
من هذا القليل عصبة جريئة اعتصمت في جبال بعلبك ،
ومن عائلة عريقة الوجود فيها .

كنت ترى الى الشباب الذي اعتاد رطب العيش بين
الماء والزهر ، يتوسد الحجر ويلتحف السماء ، والى تلك
القلوب التي دلت منها فنون باريس ، واخذ بها سحر استمبول
تقسو حتى لتصير اشد من الصخر على احتمال العواصف ،
كانت تذهابها الزهرة الذابلة ، فصارت لا يذعرها الدم
المهراق . الله في هذه النفوس كيف تتغير ، ثم تستقر كأن
ليس بينها وبين ماضيها صلة ، ثم ترجع الى حالها الاولى اذا
اريد لها ذلك ، وربما كان هذا سر الطمأنينة الى الاقدار ،
او العجب في نفوس تعلو على الاوضاع من غير ان تنسلخ
عنها ولكنها تسعها جميعاً .

اخذت مفارز من الجيش تتعقب اثر هذا الشباب
الناثر ، فتلاقوا في معركتين حالف النصر فيهما الثائرين ،
وكان من نتائجهما سقوط هيبة الحكومة من النفوس ،
وتجروا الاشقياء على منازل قواها اينما تلاقوا .

استفحل شر العصاة حتى كاد يمتنع ارتياد الجبال على

الجيش ، فعمدت الحكومة الى البطش ، وشكلت ديواناً
 حريباً في بعلبك ، واخذت ترمي اليه بالضحايا ولكنها
 ضحايا ضعيفة مستسلمة من القرى الامنة ، اخذت على الشبهة ،
 وفتحت بعلبك المروعة اجفانها ذات يوم على اربع عشرة
 مشنقة تدلى منها اربع عشرة جثة صفراء ملأت جانبي
 الساحة بجلال الموت ، وتجهم وجه المدينة التاريخية من رهبة
 الظلم ، وسرت في القلوب قشعريرة الخوف ، ورددت
 الصخور دوي الفاجعة ، فمد الشوار بايديهم الى رؤوسهم
 يلمسونها ، حتى اذا وجدوها في امكنتها اقساموا على الاحتفاظ
 بها واقسم جمال السفاح على اقتطافها مهما كلفته من عناء .
 اشتدت حاجة الحكومة للخطوط الحديدية ، لنقل
 الجيش والذخيرة ، واعوزها الفحم الحجري ، وسد عليها
 الثائرون المنافذ الى الحراج ، وكانت الجبهة الجنوبية مهددة
 بالاكتساح ، فرأت ان ترجع الى الملاينة ، ففغت عن
 الثائرين والعصاة . واخذت الفوءوس والمنشير تعمل في
 الحراج الخضراء ، تنزع في كل يوم عقدة من تاجها تتحول
 الى شرار ودخان ترسلها افواه مواقد القطر السوداء الصافرة
 الى ان اصبحت الجبال جرداء .

عود الى البيت

ترك اهل عمر القرية مع آخر عناقيد الكروم ،
وكانت يد الخريف تمتد الى الاوراق الخضراء فتصفر تحت
لمسها ثم تتساقط ، وكان هواء الجبال يحمل في الامسية
والاصباح ، انفاس الشتاء باردة متناقلة ، وكان اخو عمر
جندياً يقضي خدمته في الشكنة الكائنة غربي المدينة ، التي
يرجع عهدها الى ابراهيم باشا المصري ، انشأها حين غزا
سورية بطريقه الى الاناضول ، ثم جدد بناءها الترك عندما
جعلوا منها مقراً لاقسام اللواء .

تمر الايام هنا فلا تطبع بذاكرة عمر الا صورة كدراء
ولا تحرك في نفسه الا امانى مقهورة . وماذا تريد من فتى في
الثامنة عشرة من عمره ، ضيع المدرسة فلا امل له بالحاق
بها ، وفاته الحقل فلا رجاء له بالفته ، فلا هو متعلم ولا هو
فلاح ، ولو انه كان الاول لعاش على الامل وترك النفس
تسرب في افاقها فتجد بعض العزاء ، ولو انه كان الثاني
لنقع بالقدر ، ورضي من الحياة بافق صغير ، لا يتجاوز مدى

عينيه ، لاله وراء لاله امام .

من يعلم ما يخبيء له القدر في طياته ؟ ما الانسان هذا
الاله الصغير الذي سخر القوى الطبيعية لخدمته ، الا مخلوق
صغير ، يدب في هذا الكون الى مستقر معلوم ، بقدرة
الاله الجبار الاكبر ، وهو مسوق الى ما يريد او الى ما لا
يريد ، رضي ام ابى ، لنعترف بهذا فنذكر تأثير الاقدار في
توجيه دفعة حياتنا .

كان عمر يسكن مع والده ، في محلة النهر قبالة الجامع
من الشرق ، داراً يدخل اليها بدهليز قامت باعلاؤه شرفة
ارتفع الى احد جوانبها عليتان ، وينتهي الدهليز الى حوض
فسيح في وسطه بركة يتدفق اليها ماء « الحنابلة » بمزrab ،
وتدور بها احواض البنفسج الساجي على اقدام الورد في ظلال
التوت والخوخ والدراق والتين ، والى اليمين رواق لربط
الخيل في الصيف ، والى اليسار بيتان علت ارضهما الجنينة ،
تقدمهما افريز رصف بالبلاط الجردي الاحمر غير المذهب ،
وفي غربيهما بيتان ينتهي احدهما الى الشارع ، ويتصل
باحدى العليتين بواسطة سطح المطبخ والدهليز ، وكان عمر
ينام في العلية الشرقية هو واخوه الجندي .

الزمن

أخذت شمس نيسان الفتية ، تبعث بأشعتها اللامعة الفاترة إلى نافذة الغرفة ، فتمت كسر عليها ، ثم تدخل فترفع بإصابعها الفضية غشاوة النوم عن العيون . نهض عمر من فراشه وتطلع إلى أخيه ، فوجده في غفوة عن الحياة ، يحلم تحت دفق النور ، ليس توقظه جلبته ، وكانت الأشعة المترجرجة تزيع عن وجهه كآبة الحلم ، فتكشف عن محيا امتلأ شبابا وصباحة ، فاذا انحسرت رأيت كأن رؤى جميلة وقاتلة تتجمع في معابد الهداه فتزها .

ترك عمر النور يندلق في الغرفة يبطئ ونزل إلى الحديقة ، فوجدها لا تزال مخضلة بانفاس الصباح ، وقد حشا الورد اكمامه من درر الطل الراش وضحك من بلاهة الاغصان الباسقة الجافة ، واخذ البلبل بصوت خافت ، تكاد

تسمع لهائه في الحانه ، ينثر اغانيه في جوانب الحديقة ،
ينتقل من فنن الى فنن ، حتى اذا حط على الوردة الحمراء ،
ارتفع صوته بالغناء ، يمازجه شجى تحس فيه كأن قلبه على
لسانه ، وما زال صوت الصادح يرتفع حتى ملكت روعته
جوانب الحديقة النائية ، ثم انقطع فجأة وسقط الطائر الصغير
جثة هامدة الى الارض •

تقدم عمر منه واخذه في كفه يتفحصه بخوف أى في جنبه
المبيض جرحاً يدمى ، تجمع الاسى في عينيه دمعة هي كل
ما يملك ، لكن هذه الدمعة الحارة الطافية لم تنطلق ، لان
رصاصه انطلقت في الغرفة التي تركها منذ هنيهة ، ترافقها
صرخة الم •

انتحرت ! لم يشأ الفتى ان يقول اكثر من هذا لوالديه
واخوته الذين جاءوا يبحثون حول فراشه صامتين احتراماً
لالامه الذي يعانيه في صمت وهدوء رهيبين ، هو لم يرسل انة
ولا زفرة ، لم يتضجر ولم يكتئب ، وهم تحسرج الروح في
صدورهم ثم تندفع فتقف في الالهة تتهافت غصصاً خانقة ،
وتنفجر رؤوسهم بالحزن ، فيفيض الاسى على الوجوه ،
ويفيض الدمع في العيون •

كان المسدس الجاني يشهد هذه الفاجعة بلا حراك على
قيد ذراع من الشاب ، لم ترتسم على وجهه الاسود علائم
الدهشة والخوف ، ولا هزته عاطفة الرحمة بالشباب الذي
اردى ، كان حديداً بارداً برودة الموت ، الى ان وقع عليه
نظر الجندي ، وغامت عين الفتى ثم لمعت لمعانا غريباً ،
وارتسمت على وجهه بسمه حمراء ، فاذا الحديد الميته الباردة
تدلف الى الذراع الممدودة حتى لتكاد تقبض عليها . لكن
هذه الآلة الرهيبة تغيب في جيب الوالد في مثل لمح البصر ،
على حين طافت بوجه الفتى ابتسامة عذبة صفراء .

خرقت الرصاصة الامعاء الدقيقة في مواضع كثيرة ،
وأتمر الاطباء مرة ومرة ومرة ، ثم عادوا ليعلموا بخفوت ،
عجز الطب وعجزهم عن تحدي رصاصة صغيرة اتخذت
قرارتها الابدية تلك الاحشاء الطرية ، ولما اعلن الانسان
ضعفه ، اتجهت القلوب والابصار الى السماء ، تنتظر الاعجوبة
الشافية من الاله العظيم ، وفي اليوم الثالث ادركت المحتضر
رحمة ربه فاختره الى جواره .

انتحرت ! كلمة واحدة ترددها الشفتان ببرودة ، فاذا
اخذت شكلها في الوجود ، صحبها انهدام حياة مليئة بالشباب

والامل ، وهكذا تحيا كلمة وتنفى حياة .

كان عمر ينبش عن اوراق اخيه ، حين عثر على ورقة صغيرة مطوية اصفر وجهها ، فتحتها برغبة حادة ، فوجد مكتوباً فيها « عندما تملك العاطفة الجامعة العقل ، تبرق في العدم اسرة الحياة ، وتترامى قبلات الاشباح اثمن مـا على الارض » .

اترك لك يا قارئ العزيز ان تنبش عن سبب هذا الانتحار في تضاعيف هذه الكلمات الخالبة ، ثم اطلع على نفسك بالسبب الذي وجدت ، فاذا قنعت فقد يكون هو بعينه ، فالتقاع بالخطأ تجعله صواباً ولو الى امد معلوم .

ولكن ما هو الانتحار ، وهل يمكن ان نعالج فهمه من طريق المنطق ، فنكشف عن خطائه او صوابه .

لا ريب في انه ككل القضايا يحتمل الوجهين ، وانه من الصعب الغوص الى اعماق النفوس البشرية والاطلاع على الظروف والعلات التي تعمل على تكوين الانفعالات النفسية والجسدية ، وان الحكم الذي يصدر عن ذلك فيه كثير من الخدس .

ولكن مما لا ريب فيه ايضاً ، ان الانتحار يتطلب

شجاعة تسود كل العواطف الاخرى في المنتحر الذي تسمو
 العواطف فيه وتقسو وتشمخ الى ان تلتقي في قمة واحدة تنطح
 العدم فتفجر فيه كالقنبلة وتتلاشى ، فالكبرياء هي التي
 تنتحر لا الوضاعة ، والشجاعة لا الجبن ، والعقل لا الجنون
 والشبع ايضاً لا الجوع . أن الوضاعة والجبن والجوع تدفع
 في غالب الاحيان الى السرقة ، الى الشحاذة الى النهب ، الى
 ارتكاب الجرائم لا الى الانتحار ، ربما قيل تواتر المصائب ،
 نعم ، اذا جاءت المصيبة دفعة واحدة . فاحدثت هزة عنيفة
 في النفس قتلتها في النادر واسقمتهما في الغالب . اما المصائب
 تأتي الواحدة بعد الاخرى ، فلا تقبل التكاثف ، كل زفرة
 يصعدها المرء تذهب بواحدة منها ، فتوثر ولكن ليس
 بالقدر الذي نتخيله ، لان النفس لا تأخذ منها اكثر مما
 تسع كالجسم لا يأخذ من الحرارة اكثر من قابليته ، ولو ان درجة
 الحرارة ارتفعت في النور او في الظل الى اربعين او زادت ،
 فهل ترتفع درجة الجسم الى هذا القدر ؟ فاذا كان الجواب
 سلباً قلنا كذلك اشتداد الحزن لا يقتل ، وقد لا يبعد هذا
 الترجيح بين حياة متعبة ، وموت مريح عن الاستشفاء الذي
 يختاره الطبيب لمريضه في شيء ، لكن اختيار المنتحر يختلف

عنه بان لا اختيار فيه .

لم ار والداً اجزع على ولد من ابني عمر حين وسدوا ابنه
لحده ، اكب على الجذث الذي انتزع منه فلذة كبده
ليحجبها الى الابد ، ولما سدت الصفائح مسارب عينيه الى
آخر قطعة من الكفن ، تناهض معتمداً على ركبتيه فلم
تتسق له النهضة ، طحنت المصيبة فوءاده وضلعتة فنزل رأسه
الى منكبيه ، عاد الى البيت يتوكأ على عصاه ، واخذت تمر
به الايام فتهدمه في الصبح حين تقبل ، وتتعثر به في المساء
حين تدبر ، حتي اذا تم لها شهور خمسة حملته الى عالم ولده
المغمور بالاسرار .

عاد عمر من المقبرة ومعه رجلان يحملان النعش فارغاً
وقد كان النعش قبل ساعة ، يحمل دنيا كاملة كانت موطن
احلامه ومسرح آماله ، ومقر امانيه ، وهو الان الواح من
الخشب شد بعضها الى بعضه بمسامير ، يبعث في اقصى القلوب
رجفة الخوف ، فما اضعف باطل الحياة واوهي غرورها ، وما
اقوى الموت في تواضعه وافصحته في صمته .

ينتحر الاخ ويقضي الوالد جزعا عليه ، ويصبح عمر
رخص الشباب ، والعيش يدافع المغامر ، اعزل السلاح

والقوي يأكل الضعيف ، قليل الزاد ، والحرب تركت
البشر خمس البطون يتلقفون لقمتهم من فم الاسد ، ويلتقطونها
من حماة القذارة ، يصبح عمر رب عائلة من والدته واخوات
ثلاث ، واخوة اربعة ، يكاد يحضنهم ذراع .

لست احب ان اتبع حياة عمر في غمرة موحشة حزينة ،
او اترسم جهاده الفقير في سبيل الرغيف ، يسد به رمق
هذه الكتل الحية من لحم ودم ، لا تقوى على الجوع ، ولا
تقوى على العمل ، ولا تقوى على الاضطراب ، ومهما يكن
كفاح المرء في سبيل الحياة مجيداً ، ومهما يكن هذا
الجهاد محترماً ، اذا قيست الحياة على الكفاح لا على الثمرة
التي يوءتيها ، فان هنالك بعض الاسرار العادية التي لم
تكن سرّاً لولا كتمانها ، لا نبيح لانفسنا ان ننبش
عنها احتراماً لسرائرنا اللاصقة بحياتنا الشخصية لصوقاً شديداً
وقد يكون من ثم سحر الحياة ان تكون دقائق هذه الحياة
مطوية ومغمورة بالاسرار ، حتى لترتجف اصابع صاحبها
عند تلمسها ، اذ يحس جرحاً ينغر تحت كل اثملة ، فما احرا
ان يبتعد بنفسه عن النار التي احترق بها من قبل ، وما
يزال يحمل منها في كل جراحة ميسما .

وعلى هذا فسنمر على دقائق حياة عمر ، دون ان نحمل
القاريء سأم الوقوف عليها ، وقد يكون ممن لا يحبون
مشاهد المآسي ، او ننبه فضوله اليها وقد تساوي اكثر
من عناء الفضول فيسخر منها ويسيء الى صاحبها من حيث
لا يريد .

ولست ادري ، اهي الكبرياء التي تمنعنا عن فتح هذا
الصندوق المغلق ، والتفرج الى حطامه الذي يحمل منالشيء
الكثير ، ام حقارة هذه الحطامة التي نحاول نكرها بكل
قوتنا فلا نقدر ، لانها عملت على تكويننا ، فهي في كل
خلجة من خليجات نفوسنا ، ام قدسية هذا الحرم المفغوم بلهات
الاكبد ، المعمور بالباطل والغرور ، الموروثين من اقدم
اجيال الحياة ؟ لست ادري .

بقطة القلب

يعمر البؤس قلب المرء باطيب المشاعر الانسانية فترى
الى البائس يمتص بؤس الآخرين ويجبل به عواطفه ، فاذا
طرقته أنه تصدع لها وتهافت ، وهو يجعل منه وعاء يحب الجمال
ويتشرب الوانه الكثيرة الفاتنة ، لانه يجد فيه دواء لآخسائه
المرمض ، وغذاء يبعث فيه قوة الحياة ، واذا رقت المشاعر
ونفتحت للجمال غزاها الحب في مواكبه ، فيتفجر صخرها
بالماء ، وينبت العشب اخضر في شعافه ، وتنطلق من اعماقها
اغنية الحياة وتطوف على محياها ابتسامة الامل .

كان عمر في تلك الآونة شابا يجري الدم حاراً في عروقه ،
فيحس بحماه تدب الى قلبه ورأسه .

عندما تأخذ الانفعالات النفسية صورها من الحياة
تجلى حركات وافعالا ، فالشاب في كل ما يعمل يصدر

تحت تأثير عواطفه واحساساته وتفاعل خوالجها . وليست
حياته المادية باشكالها سوى صور عن نفسه او آلات
ميكانيكية تديرها كيف تشاء ، هي حيوية النفس المتجسدة
التي بلغت ذروتها من الكمال الخلقى .

وكان جو بعلبك التاريخي ، والمناظر الجميلة التي تحيط
بها ، تساعد على زخرف الخيال ، فتبهت العين في زهو الليالي
الزرقاء ، ويتلاشى القلب في كسل الايام الضاحية الهاجرة ،
ويسبح الفكر في غمرة لا شعورية ، وتنقطع كل صلة له
بالحياة ، فيصب الشاب قوته ، وحيويته ، وخياله ، في ذاتيته
وتصبح هذه الذاتية رحي تدور عليها الحياة بعناصرها الجبارة ،
فتنطحن فيها ، فاذا انتهت منها عادت الرحي تدور على
بعضها ، فتأكل في ذاتها ذاتيتها ، ولا يلبث الشاب ان يرى
هذه العواطف المتأكلة تعوي من الجوع ، وقد انخلعت من
الايمان وهجرت التقوى ، وتبدت لها اشباح الحياة عارية ،
ترقص بزيفان خالب فتنهد اليها بكليتها ، فيعيش في جو من
الكفر المترجرج ، والحب الغامر ، والفسق الجارم في وقت
واحد معاً .

هــ

و كانت هند تسليخ الاربعة والثلاثين من عمرها ناضجة
الجمال ، والمرأة الحسناء في هذا العمر ، تجتاز اخطر ادوار
حياتها ، فهي على القمة ، تلقي بنظرها الى الماضي ، فتود لو
ترجعه اليها في قبضة يدها ، وتتطلع الى المستقبل ، فتري الى
لجة الزمان تبذلع ايامها ، وتبتلع معها شبابها وجمالها ، فتقف
مذعورة لا تريد ان تتقدم خطوة واحدة . ويجمع حب الحياة
الى خوف الفناء ، فتدعو اليها كل حيوياتها ، فتتجلى رائعة
من روائع الوجود ، وتود لو يقف الوقت عن الحركة ،
وينعدم الزمان ، وينفرج قلبها ليسع في منحنياته وشغافه ،
كل خلجات الحياة .

على ان عمر اخذ بجمال هند قبل ان يعمل فيه هذا
التحليل النفسي ، وقد رأى احلامه تجول على اهداب عينيها

ونعيمه يرفرف حول فهماء ، ولم يكن هذا الميل ليتعدى حد
الاعجاب بجمال لا تتمالك النفس الا ان تتأثر به تأثراً قد
لا يبعد كثيراً عما يفعله في النفس برعم الورد المتفتق من
قبلات النسيم ، او الحمامة البيضاء تدوس بقدميها رأس العشب
الاخضر ، وتمرغ وجهها بلبيله الندي ، فالجمال يعمل عمله
السحري في النفوس الحساسة اينما كان وحيثما وجد ، ومهما
يكن تأثر النفس بالجمال المطلق قويا ، فان تأثرها بالجمال
الجنسي اشد واقوى ، ويكون هذا التأثير سبيلا الى
الحب ، يقصر او يطول بحسب شدته ، وقد يكون بذرة
الحب الاولى .

والعاطفة اذا بقيت في عالمها محصورة ، تتلاشى وتفنى ،
ولذلك نرانا مجبورين ان ننادي حيوانيتنا لنخرجها الى عالم
الحياة حركة وفعلا ، بقبلات تلتصق فيها الشفتان ، او ضمة
يتفرق بها الساعد ، فان اقتراب الجسمين وتلامسهما مهما
كان بريئا ، يمكن جذور الحب في قرارة القلوب ،
ويدفعه الى النمو في اعماقها ، ولهذا نستطيع القول ان حيوانية
المرء النائمة ، هي التي تعمل على تكوين الحب عندما تتنبه ،
وهي ايضا غاية الحب التي يموت عليها .

ولست اريد ان اقول ، ان العاطفة الحيوانية وحدها ،
تكون وتعمل فانزل بالانسان الى درك البهيمية المحض ،
ولكنني اقصد الى انها السبيل الوحيد لاعطاء التأثيرات
النفسانية شكلاً حياً ، ولا ريب في ان هاتين العاطفتين
متلازمتان تلازما شديداً في هذا الانسان المركب .

نمو الحب

ولقد اراد عمر لحبه ان يعيش ، او اراد هذا الحب لنفسه
ان يحيا - اذ ان بعض الارادات الخاملة فينا تتنبه بمجرد
وقوعها تحت تأثير خارجي عنا ، كما ينبه التيار الكهربائي
العصب الميت في المريض فيعود الى وظيفته - متأثراً بعمل
الجمال الدائم والحياة من مقتضاها النمو والامتداد والتسلط
فتظهر هذه العناصر في النبات بشكل معلوم ، وتأخذ في
الحيوان شكلاً يختلف عنه ، وتطالع على الانسان في
حبه بشكل يمازج بين روحانية الحب وحيوانية
الانسان .

ولنترك لعمر ان يخط لنا الطريق التي مشى به حبه فيها ،
ولنجعل من انفسنا عليه مراقبين لا متفرجين ، فنذكر الى
اي مدى يبلغ تأثير هذه الرواية الازلية في الحياة الانسانية .

كنا رسمنا خطوطاً لهند لا تفي بالصورة التي يجب ان
يعرفها القاريء عنها ، فنعود الان لنضع على تلك الخطوط
بعض الالوان التي تلزمها علمنا نوفق الى ابراز صورة عن هند
تقرب كثيراً من حقيقتها . لانا نريد ان نريها للقاريء كما
هي لا بالصورة التي قامت في نفس عمر منها وقتئذ ، ولا التي
تقوم منها اليوم ، نريد صورة خالية الى حد من تمويه الفن
وزخرف الخيال .

فقدت هند زوجها ، قبل ثماني سنوات تمر على هذه
الحوادث ، اذ كان في اوج شبابه واذ كانت في روعة صباها
سافر الى اميركا في طلاب تراث سقط اليه من وفاة قريب
له ، فعاجلته المنون قبل ان يدركه ، وجاء الخطب عظيماً
عليها ، فعزمت على ان لا تفكر في زواج بعده ، وقد
يكون السبب في ذلك انها فقدته حينما اخذت تحبه ، فانها
تزوجت منه مرغمة ، حينما لم يرد لها اهلها ان تقترن بالشاب
الذي تميل اليه ، ولم يكن في ذاك الوقت لاختيار البنت
شأن كبير ، بل كانوا يعدونه اذا ما وقع عيباً تعاقب عليه
بالحرمان ، وكثيراً ما كانوا يسمون هذه الطفلة عروساً لهذا
الطفل عندما تبصر عيناهما النور . والمهم ان نعرف ان هنداً

كانت تميل الى الزواج من شاب غير الذي زوجها منه ،
وان هذا الميل يتم شيئاً من الحرية كائناً في نفس الفتاة ،
وان هذا الشيء الصغير من الحرية نما واتسع مع الوقت ، كما
تنمو جميع العناصر الحيوية •

على ان هذا الميل القديم ، لا يمنع ان تكون هند احبت
زوجها ، ذلك لانه بقي عاطفة محصورة لم يتح لها ان تخرج
الى عالم الحياة ، فتلاشت في نفسها ، ولان هذه العاطفة كانت
في قلب فجع محمول على غرور الفتوة ، ليس عنده قابلية
الاستساعة ، فلا تكن اكثر من نسمة من نسيمات ذاك
الغرور ، وفوق هذا فان المرأة تحب اول فارس يطلع عليها
فاتحاً ، فتحفظ من رجولته الشرسة ، اعذب اللذات الدامية •
تتناقل العامة مثلاً ربما كان آتياً من اقدم الاجيال ،

هو: «عزباء الدهر ولا ارملة شهر» • هذا المثل يحمل معنى
عميقاً يتناسب مع عتقه ، يكشف لنا عن نفسية الارملة
بالنسبة الى الحب والى عمل الحب ، ومما لا ريب فيه ان
السبيل اليها اهون منه الى البنت البكر التي لم تتفتح خلاياها
على اللذة ، ولم تندجوانها على الحب ، فلاذت في عصمة من
جلال الطهر ترتجف ابلغ الايدي في الاثم عند اغتصابه •

رسالة الربيع

عندما يطلع الربيع في كل عام ، يحمل معه رسالة
الحياة ، فيبعثها في الكون نوراً وزهراً ونسماً ، وفي يوم
ربيع ضاحك ، وقفت هند الى المرأة ، وكانت نافذة غرفتها
ترمي الى حديقة خلع الربيع عليها اجل ابراده ، وكانت الصبا
تحمل اعراف الورد مع نسמתها ، فتدفع بها من الشباك ،
لتداعب شعرها الكستنائي الذي كانت تجمععه عن كتفها
لتصفره جديلتين ترسلهما الى منازل الردفين ، وكان عصفوران
يقعان على حديد النافذة ، واحد زائف ينشر جناحيه ويقبضهما ،
 وآخر مطمئن ، ثم لا يلبثان ان يطيرا الى الغصن فيضمان
منقاريهما في مثل الزق ، ثم يعودان الى الكروا الفر .
حدقت هند بالعصفورين طويلا ، وقد ذهلت عن
نفسها ، وعن المرأة ، وراحت تسرح في الحديقة ، بين

مضاجع الورد ، وملاعب الطير ، وتمثلت لها دنيا الشباب بما
فيها من مرح وزهو وحب . ففرقت في سبح من اللذة الحاملة ،
وما كادت تهز رأسها قليلا ، حتى وقع نظرها في المرأة ،
فانتهت للحقيقة ، وتطلعت الى وجهها فاذا هو في غلالة من
شحوب زادت في فتونه ، ولد لها في هذه اللحظة ان تقف
الى المرأة وان تطيل النظر الى محاسنها ، فرأت وجهها يفيض
بالجمال ، واحست وجودها يموج بالحياة ، واخذ صدرها يرتفع
ويهبط ، فذعرت له ، وشعرت لأول مرة بكآبة الوحدة
فدعت اليها الخادمة .

وهكذا كانت هند مغرمة عندما تعرف اليها عمر ،
ووضع قلبه بين يديها ، وليس يهمنها ان تعرف شيئا عن هذا الحب
او ان تتحدث عنه ، بل سنترك لعمر ان يحدثنا عن غزونه
هذا القلب الحصين وعن فتوحه فيه .

*

الى هند

بيني وبين اليقين ستار رقيق ، قصرت يدي عن خرق
حرمة ، فازيحيه يمينك القادرة ، والفضي كلمتك الاولى
والاخيرة ، شقاء تحمل ام سعادة . قرأت لك رسالة الاعتراف

التي كتبت لاجلك وقلت لك « انظري الى تخيلات الشباب
الجميلة والى كيف انا نعيش بالخيال » ولكن الحقيقة كانت
انني اعترفت ، وظننت انني القيت عن نفسي عبثاً ثقيلاً ، فاذا
انا اطلب محالا .

ولم اجسر على النظر الى وجهك ، الا بعد ان انتهيت
مع الرسالة ، وتطلعت فرأيت في عينيك ذبولا وانكساراً
فانصرفت .

بما في من شباب وايمان وشعور وحياة احببتك .
واحبك ما بقى لي الشباب والايمان والشعور والحياة .
انما اذكري ان الزهرة الضاحكة لطل الصباح ، المستحمة
بنور الشمس ، الراحشة تحت انفاس النسيم ، تدوسها الاقدام
يوماً ، وتصبح تراباً للنعال .
واذا كانت كلمتك الاولى شقاء .

ارجو ان تحرق هذه الرسالة وان تضعها في صحن
السيجارة الذي تقدمينه لي ، لارى عواطفني المشتعلة
رماداً ، تذريها للهواء يد المرأة الناعمة .

هند !

لجأت اليك من بؤسي ومن شقائي ، وهربت اليك من

آلامي فهربت مني - وكنت اقسى عاطفة من الجماد -
مخافة ان ينتقل اليك الالم بالعدوى ، او يدنو منك البؤس
كلما دنا منك خيالي ، ففي سبيل الله يا هند ما الاقي وما
لاقيت .

حلمت بالسعادة وبنيت من احلامي هيكلًا ذهبيًا ، ونمت
وقد اعياني التعب ، فلما استيقظت وجدت هيكلتي الجميل ،
وجدت امالي العذبة ، محطة على عتبة الغد ، نوحى ايتها
الحمامة ولتصمت العصافير المغردة ، ولتسكت اجراس العيد ،
فاناث الحزن قملًا الفضاء .

كم كان يصيبني منظر البدر الموثلق ، يتهادى في
القبة الزرقاء ، تهادي الحسنة في ثوبها الازرق يرسل من
شعاعه اسهامًا على صفحة الماء الجاري فتدوب في صفائه
وسلاسته ، وتلبسه من اللجين ثوبا براقا ويمسده عليه
الصفصاف فيلقي بنفسه الى الماء ، فيغتسل ويخرج الى الضفة
تاركا اثوابه المبللة .

اما الان ، فان هذا المنظر يبعث في نفسي حزنا واما
شديدين ، كما يبعث العيد وطبولة ، وجديد الاغنياء
وظنطنهم في نفس الفقير المدقع الحزن الراقد والالم

الدفين .

دعي نسيم الصبح ينسل من ثوبك حتى يبلغ الصدر
ويلثم النهدين والفجوات انه رسول يحفظ السرا
لعلها تفسنا نسمة تبرد منها كبدي الحرى
يا هند يا هند ارحمي بأسأ ينظم في نعمائك الشعرا
« عمر »

*

الى هند !

و كنت كالطير عيشاً يهيم فوق الغصون
ويهبط الروض حيناً وينجلي بعد حين
من الخزامى الى زهرة النقا فالياسمين
حتى بليت بسجن من الغرام مهين
وصدرك عليه رقيقة تجرسي
ما كنت احسب اني اعيش رهن السجون

*

صداح غن الاماني ورد باللحن امسى
وقل لهند بلطف الا افتحي باب حبسي
وأطردني بعنف فقد طربت لرسمي

ومن اجمل ما خلق الله هند ، وهل الجمال سوى روح
الهية ، ترفرف القلوب الشاعرة حول شعلتها النيرة .
وفي عيني هند سحر عجيب . فتارة فيهما شيطان يتكلم
واخرى ملاك صامت .
وفي فيها الكوثر . وبين شفقيها النار والجنة . وشعرها
حبائل ومكايد . وهند من اجمل ما خلق الله .

هند !

بسماتك ما خلقت الا للبؤساء فامنعيها عن بقية الناس .
البؤساء ، اولئك الذين منعتهم الحياة من طيبها ،
ورماهم الدهر بسهمه فاصمى ،
وقطب وجه الهناء لهم ،
ولوت عنهم السعادة بعنقها ،
فهم يعيشون في ظلمة الغزلة ، وعلى نور الالم يحيون .
بسماتك تلك : يحوكون منها ارديتهم ، ويتغذون منها
بالرحمة .

يتفأون ظلها في القيط ، ويستدفئون بنورها في البرد .
يسقون منها امالهم الجافة ، ويروون قلوبهم الذابلة .
فصوني ابتساماتك عن الناس . وامنحيها للبؤساء صدقة

وزكاة .

هند !

ها ان الشمس تغرب عن مرجة راس العين الزمردية .
وانا ارقبها عند نبعها الصافي . وحولي سكون يقطعه
خرخرة الماء وزقزقة العصافير ، في هذه البرهة قدرت ان
اخلو لنفسي واتحدث لقلبي . لقد هربت من المدينة غير آسف
على ما فيها الى هذا السكون الخالب ، واخذت مقعدي
عند جذع الصفصافة الكبيرة ، وخلصت عن نفسي رداء
الظاهر المستعار لاراها كما هي ، واطلقت قلبي من جنبي ليشتمع
قليلا بنعمة الحرية . فكنت وكان كل شيء حولي طبيعياً
وخالصاً للطبيعة .

وحبست ذكرياتي ، واردت ان انسلك عن الزمان
وهممت ان احيا ساعة بذاتي كتلك العشبة النابتة على الصخر ،
فاذا خيالك يطالعني في الماء ، في العشب ، في الشجر ، في
الارض ، في السماء ، وفي كل شيء . فالى اين تلحقين بي
لتفسدي علي هناة افديها بالكثير مما املك ، بل لماذا املك
معي الى هذه المنازل النائية ، فتثيرين في العاصفة حين اطلب
الدعة والطمأنينة .

« عمر »

يوم وليل

الى هند !

انت تنامين ملء عينيك وفي حجرة في هذا البلد
عينان ارقتان ترقبان القمر الطائف بلا لائه على القبة
الزرقاء ، عشرون دقيقة بعد وتقع الساعة الثالثة في لجة
الماضي ، فيهتز لانهقطاعها قلب الليل ، قل زيت السراج
فتضاءت شعلته وعادت صفراء عليه ، تقاسي نزع المحتضر ،
فرقت بها وطفيتها ، فاحتوت الغرفة ظلمة غبشاء ، لكن
البدر يندفع بفضوله حتى ليخيل الي انه يوجه بانظاره الحادة
الى حيث ماتت الشعلة ، يستكشف اثارها ويكشف عن
اسرارها ، وها هي طوالع انواره تدخل من النافذة بلباقة
الجاسوس وحذره . انتشر ايها النور وتألق وأنر سبيل القلم
ليضع على وجه القرطاس نقشته •

هل كانت دعوة الى عرس فتزينت ، فكنت فتنة
تتحرك ، وتطلعت اليك فهاجت النظرة لاجع القلب فثارت
كوامنه ، وماذا تريد ان يكون غير ما كان وانت
جميلة وانا شاعر . وتركت الغرفة كما دخلت اليها ، كأنك
في غفوة عن جمالك ، وعما يتركه في القلوب من تأثير .

لك الله ايتها الغافلة ! هل علمت اني حملت منك حمي
تهافتت قواي تحت رسيسها حتى احسست بالوهن يدب الي
من كل صوب ، فهربت الى الهواء الطلق ، اغرف منه بشدقي
ما اقدر ، وما كان الهواء ليزيل حمي الاكبد .

وعدت اليك في المساء اندفع مرغماً ، وقد عاهدت
النفس ان لا اعود ، وما ادري ما عراني ، رعشة القلق ام هي
الحمي عاودت ، خفق قلبي ، واشتدت ضرباته حتى خشيت
ان يغشى علي ، قلت لك بابهام فيه شيء كثير من السذاجة ،
ضعي يدك على قلبي تري ما به ، فوضعتها برفق (شكراً
لك) ولم يكن ليخطر ببالك انني طلبت بها الدواء . تقضت
السهرة والحمي لم تهدأ ، والقلب لم يهدأ وعبثاً ربطت عليه
باليمنى ، ولولا انه رهين هذا القفص العظمي لطار . وكنت
اجيل النظر في الحضور وفيهم اصحاب لي واطراب ، فلم ار

في عيونهم دهشة ولم المح على وجوههم قلقاً ، فادر كـت انى
كنت وحدي احس بك واشعر ، فطالعتني من اعماق نفسي
كبرياء مقهورة ذليلة ، طالما راودتني في مثل هذه السانحات
حين يلذ لي ان لا اشبه الناس في شيء ، وان اشد عنهم في
كل شيء .

ما عدت اطيع العيش في عالم ادور فيه على نفسي فلا
اخرج منها ، وصرت ارى الصمت سخفاً اذا طال امده انقلب
الى الم ساخر لا اقوى على عبثه ، فاليك نفثة ، من ذوب
الفؤاد ، واحمل يا ليل عني .

« عمر »

الى هند !

تراكت عندي هذه الرسائل ، فلا انا اجسر على
اعطائك اياها ، مخافة ان تردى بها بهون وفيها شيء كثير مني ،
ولست اطيع الالهانة حتى من احب الناس الي ، واحاذر ان
ينقلب حبي الى بغض ناغم واكره العيش في البغض يتأكل
القلب ، ويلوي بالعقل . ولا انا اقوى على الاحتفاظ بها ،
واحسها افاعي يملأ فحيحها دنيائي في النهار ، حتى اذا اتى
الليل دبـت الى مضجعي من كل زاوية . فيملكني ارق

خائف مضطرب . فاترك الفراش مذعوراً وابدأ بذرع
الحجرة من اقصى الغرب الى اقصى الشرق مراراً ومراراً حتى يعلن
الديك قدوم الفجر ، فانس الى هذا الصائح الاخرس ، وعندما
تأخذ الحياة تدب الى الاشياء ، يأخذ النعاس بالانسلال الى
جفني ، فاغفوا اغفائة الذئب .

احمل اليك في هذه الوريقات كبرياء محطمة ، هي كل
ما املك واثمن ما املك ، فخذوها يا سيدي ، فهي سلاح
الجندي الباسل سقط في المعركة دامي الصدر ، وليهنك
النصر .

« عمر »

عمر وهند

هذا كتاب لك !

من اين ومن ؟

فيه اشياء قد يلذك قراءتها يا هند !

قلت لك ممن ؟

اقرأيها ثم رديها الي اذا ...

ترك عمر اشياءه في يد هند وقفل راجعاً من حيث اتى
قبل ان تخرج من تردها ، ودون ان يجسر على الالتفات الى
الوراء ، واغلق خلفه باب الدار بشدة كأنه يوصده عليها ،
مخافة ان تلحق به فترمي بوجهه هذه الاشياء التي يجبها ويخافها
في وقت واحد ، ولما صار الى الشارع انطلق يعدو وقلبه
يعدو فيه حتى بلغ الى حجرته . اخذت تطوف برأسه
الاخيلة وتغزوه الاوهام ، فاذا سمع وقع اقدام ظن كئيبه

راجعة اليه بخطوات جبارة ، فلا يملك نفسه عن التطلع الى
باب الغرفة ثم الى ابعد من ذلك حتى يطل على الزقاق ويرمي
بعينه الى اقاصه ، فاذا وجد كل شيء مكانه ، ورأى الناس
يروحون ويأتون كعادتهم ، اطمأن الى ان الكون لم ينقلب ،
وان الثورة ما زالت في نفسه لم تتعد حدود جلده ، فعاد
يعرض نفسه على التجارب ، ويقاضيه حسابا اشد من حساب
ملائكة العذاب .

فما الذي صنعت هند باشيائه يا ترى ؟ هل قرأت هذه
الرسائل العزيزة الممقوتة ، ام مزقتها بدون ان تفعل ورمت
بها الى النار ، وكم هي حائقة الان ، ولماذا ارتكب هذا
الجنون باعطائها اشياء تخصه وحده ؟ ولكن ! الا يمكن ان
تكون راضية ، ألا تحس بين تلك السطور قلبه الخافق
وتشعر بالله القاتل ، فتثني له وتعطف عليه ؟ ولكنه لا يريد
رحمة ولا يطلب شفقة ، بل يرفضهما . انه يريد حبا والحب
وان كان فيه بلسم الرحمة فليس فيه كبرياؤها ووضاعتها
لذلك هو اسمى منها .

وجاء الليل ، فانقذه النعاس من جحيمة ، وفضل النوم
انه يقطع الصلة بين حاضرا والماضي برهة من الوقت تستريح

فيها اعصابنا المتعبة ، لتسترد نشاطها وتستعد للكفاح مرة
جديدة ، فيقلب منطق الاشياء حسب القوة التي تخالج
انفسنا . فاذا كان عمر في غده لم ينصرف الى التفكير
بهند كما فعل بامسه ، ذلك لانه نسي المشهد الذي قام في
نفسه ، بل لان الليل مر بيده الجبارة على اعصابه فهدأها
ووطنها لاستقبال الخطب الذي سيطالعه مهما يكن قويا .

وما كاد يتقضى النهار حتى اقبلت خادمة هند وهي
امراة نصف ، سمراء اللون ، على وجهها ملامح من جمال
متعوب ، عقدت على جبينها شملة سوداء مخرجة الاطراف
بلوء صغير كاذب ولقت رأسها بغطاء اسود من (اليشمة)
تدلى طرفه الواحد على ظهرها ، واما طرفه الاخر فعطفته على
عنقها ثم ردت الى الرأس ورفعته من تحت ذقنها الى ارنبة
الانف ، فغطى وجهها ما عدا العينين . ومدت يدها الى عيها
وأخرجت من طي ثوبها الرمادي الختم بالازرق ، غلافاً مغلقاً
دفعته الى عمر وانصرفت .

هل هي اشياء عمر ترجعها هند اليه بعد غيبة ساعات
معدودة تكاد تساوي اشهر؟ وماذا لقيت عندها من الترحيب
والمقت والسخر يا ترى ؟ ام هي رسالة تحمل في اثناء سطورها

غضب الدنيا الى جانب اشياء اشياءه ؟

مرت هذه التظنيات جميعها برأس عمر وهو يفيض

الغلاف . فاذا رد من هند ورد مختصر جاف :

« انها لم تفكر بالزواج بعد فقدها زوجا كانت

تعبده ولا بالحب ايضاً . فقد خنقت عاطفتها وجاوزت الشباب

الى سن العقل ، وانها تغفر له هذه الدعابة الجريئة ، على ان لا

يكتب اليها بعد الان ، لانها تريد ان تعنى بنفسها وصحتها

وراحتها اكثر من كل شيء آخر . »

طيب ، طيب ، ولكن اين الرسائل ، ولماذا احتفظت

بها ؟

سؤال رده عمر كثيراً فاختلفت الاجوبة عليه في

نفسه ، ثم رحلت جميعاً تاركة اثاراً ضئيلة متحيرة ، والذي

لا ريب فيه ، ان اشياءه ، تلك الاشياء التي كان يحسها

افاعي تنهش فيه فزعها عنه ، هي عند هند ، وقد تكون

هند رمت بها تحت وسادتها او تركتها في وصيد القلب منها

او دحستها في طي فراش ، فهي انى كانت عندما تشعر بالدفء

تزعجها اليها من كل جانب ، وتنفت سمها في كل ناحية من

جسدها الخادر فيستيقظ ، ويضطرب تحت فحيحها وتحت

مخارز انيابها . انت ابليس سيخرج من جلد الحية ليروض
هذه النفس الجامحة باساليبه المغرية ، بل ان شيطان هند نفسها
— اوليس لكل منا شيطان من نفسه — سيطالها بدنيا
ملبئة بالحب ، مودة بالامل ، فتصغي الى وسوسته الناعمة ،
وتزف الى نداء الذات .

انت يارسائي العزيزة ! طلائع غزوتي الميمونة فلتباركك
ساحرة عبقر ، حتى ينهار هذا المعقل بين يديك السوداء وين!
تضي الايام وعمر يتهرب من رؤية هند ،
ويتجنب الانفراد اليها ، يخاف عبثها وسخرها ، ويحاذر وخزها
وتأنيبها ، فاذا شاءت الصدفة ان يلتقيها بين اترابها واخذانه
في مأزق لا مفر منه ، ارسل اليها نظراً سارقاً ، فاذا رآها
غافلة عنه ، اخذ يرسل النكتة في رفاقه فينفجرون بالضحك
الابله ، فاذا تنبّهت اليه اتقى نظرتها بنكتة ماجنة ، فترفع
الصدور على موجتها وتهبط ، وتشارك بها هند ويشارك عمر
وكأن غمامة الافق المتلبدة اخذت تنجلي .

الوردة الحمراء

يهوى عمر الورد الاحمر ، هوى يأخذ بلبه ، هوى تملك
ونهم ، لا هوى شيوع وتعبد ، فلا يكاد البرعم يشق ثغره
حتى تمتد اليه يده بالقطع والى اى مصير ؟ لا ليكون زينة
للمنضدة او هدية لحبيب ، بل ليندل فى عروة سترته بعد ان
يرسل عبيره هباء فى الهواء وفى اشعة الشمس . وترى هند
الوردة على صدره فيروعا ذبولها المنكسر فينسلها من العروة
برفق ، ويأخذ ينتزع اوراقها واحدة واثنين ، ويقذف بها
عيني هند وفمها وعنقها .

تلك هي نهاية الورد ، لم يبق فى يدي شيء منها ، لا
غير ، ولا ورق ، فهل تحسبن انك انك اقوى على الخلود
من الوردة المنكودة الحمراء . ويروح عمر يردد فى سره ،
لم الوردة الحمراء وحدها ؟ ألا أنها مثل الدم والخمر ؟

تري لو بقيت الزهرة في كمامتها تختمق بانفاسها او لو
نفتحت فوق غصنها ، تلوحها شمس النهار ويخضلها سحر
الليل ، الى ان تتلاشى في وحدة كثيبة ، هل كانت تنعم
بحياة لا سامة فيها ولا اغراء ؟
سلوا الزهرة الحمراء تجبكم : ان الميتة على الصدر والفم
لمن اروع مآسي الحياة واجملها .

البنفسج الوفي

في المناطق الجبلية يبكر الورد بالعودة ، فترى اصابع
الشتاء ممتدة الى قلب الخريف وتحس برجفة الاصباح تحت
غلائل الصقيع البيضاء يخلفها الليل وراءه ، فاذا طلعت
الشمس باشعتها توهجت هذه الغلالات باللمعان ، ثم انفرط
حبايبها المنتظم وراح يتبخر .

وصار عمر يتناقل بالنهوض من فراشه ، ويتأخر عن
زيارة الحديقة بعد ان لملم الورد منها آخر ارديته المبعثرة ،
وهجرتها العصافير المغردة: رحيل في كل زاوية تدب الى
القلب منه خلجة اسف عميق . فكأنما هذا الفراغ الذي
يتركه في الحديقة ، يترك مثله في نفس عايشة ازهارها
وبلا بلها زمناً ، فاترعتها بنضرها والوانها وعبيرها والحنانها .
فأي رابطة بين هذه الاشياء الفانية وبين النفوس ، غير حب

الجمال يا ترى ؟

لم يبق الا البنفسج وفيًا لارضه وسيبقى وفيًا رازحًا في
مملكته رغم انف الثلج والليل والعواصف ، والالماء المتدفق
في الخوض تمر به الحدثان وتنقضي ، وهو في اغنيته الخالدة ،
يفيض على الطبيعة بالحياة ، ويفنى في جوانحها ، لينبت فاكهة
وظلا .

فيا زهرة البنفسج ، رمز الحب العميق الاخرس ، قد
ضربت مثلاً للزهر ، ان الايمان بالحياة ، والثبات على الوفاء
والامانة بالحب ، توجت رأسك بالاخضر الى الابد . فانت
برغم تواضعك مليكة الزهور .

وانحنى عمر على البنفسج يداعب اوراقه ، ويقطف برفق
كل زهرة تتكشف له حتى تجمع له منه ما يريد ، وانتزع
ورقة خضراء حُضِن اليها الزهرات وجعل منها طاقة
جميلة ، وكأنه شعر بانتهاء عمله فصعد الى حجرته . لم يحن
هذا البنفسج لنفسه ، ولا ليركه يذوي في الغرفة بين
جدران أربعة كدرة ، واذن فان هنالك رسالة لم تتم بعد ،
فما هي تلك الرسالة الحيرى ؟ شرع يدخل قدميه في جواربه
بتردد ، ولبس قميصه الحريري بفتور ، وعقد ياقته بحكم

الاعتیاد ، ولما نزل في بنطلونه وانتعل حذاءه . ادرك انه مهياً
للخروج من حجرته الضيقة ، فتقدم من المرأة والقي نظرة
عجلى على نفسه ، فرأى وجهه يطفح بالرضا تحت طربوشه
الخمري المائل الى اليمين ، ورأى السبحة تداعب اصابعه اليمنى
حباتها الصفراء ، فيرتقص خيالها كلما قرعت الحبة الحبة .

الورقة السافطة

اخذ عمر سمته في الطريق المؤدي الى اقصى المدينة
ماراً بدار هند ، وألم بطرف الحديقة يريد ان يرى ولا
يرى ، وب نفسه ان يكمل رحلته القصيرة ، فطرق اذنه صوت
يدعوه للدخول ، فالتفت مذعوراً خجلاً ، فاذا المرأة التي
يجب ، وقد جلست الى ظل شجرة توت ، على كرسي من
الخيزران الاصفر ، وفي يديها صنارتان خمريتان تعقد بهما
خيوطاً كدرة الزرقاء ، وقد ذهلت عن عمية الصوف
فانطرحت بعيداً عنها على الارض تتحرك وتقترب منها عند
كل عقدة جديدة .

واعتمت بقطعة من الكريب الاسود ، عصبت طرف
اذنها اليسرى وحازت رأس الحاجب وارتفعت الى منتصف
الجبين فزوته ودارت الى قمة الرأس ثم عادت فعكفت

مستديرة السير على النقطة التي بدأت بها ، فحجبت قبة
ميلاء ، وتركت الشعر يداعب صدغها الايمن ، واذنها
ونحرها ، والتفت بمعطف من الجوخ الاسود ، بقبة من الفرو
الاسود ذي ملحمة متحيرة .

قال عمر وقد اسند كتفه الى جذع الشجرة ولم يشأ ان
يجلس ، ارى غزلك يفنى بسرعة بينما هذا الثوب الذي
تحو كين يعمر !

قالت وهل يمكن ان لا يفنى الغزل ؟ وتبسمت
واحسب ان شتاء هذا العام سيكون قارسا ، فانا اعد
العدة له من الان ، ألا تشعر ان حرارة الشمس ضعيفة ،
هي اضعف من ان تطرد مني قشعريرة البرد ، فكيف بي
في الشتاء ؟

قال لها ان الشمس لا تدفيء القلوب الباردة .

قالت : ان كلامك يخيفني فاسكت .

سقطت في هذه الاثناء ورقة توت صفراء في حضن
هند ، فاخذتها في يدها وتأملت فيها . ثم رفعت نظرها الى
الغصن الذي يعلوها ، وحاولت عبثا ان تتبين موقعها ، ولما
ردت بصرها اليها قذفت بها الى الارض ، فقال عمر : ان

هذه الورقة العليقة الصفراء ، توجي الي اشياء ، فقد احسست
لوقعها على الارض صدى حزيناً في نفسي كأنهدام الحياة ،
ما الفرق بيننا وبين الاوراق ؟ تلك تبعثرها الريح ونحن
تبعثرنا المنيا ، غير انها تعود في الربيع القادم في حلة من الشباب
الرائق ، اما نحن ..

اصمت ، اسكت ! لا اريد ان اسمع شيئاً عن الربيع
والموت ، عن الماضي والمستقبل ، بل حدثني عن الحاضر ، كل
ما املك من ثروة ومجد وحياة هنا ، وفي هذه الدائرة الضيقة
وحدها .

وعاد اليها هدوءها بعد هذه الثورة الصغيرة فهمت
بالانصراف قائلة : هل لك ان تعيرني كتاباً للمطالعة والتسلية ؟
فابعث به الي ، وافترقا . دخلت هي الى البيت وعاد هو الى
الشارع ، لا يدري الى اين يذهب .

الكتاب

تلبك الامر على عمر وضجت الحيرة في نفسه فاي كتاب ينتقي
للمرأة؟ وراح يستعرض كتبه القليلة المهمة في طاق حجرة نومه ،
يمسح عن هذا غبرته ، ويلتقي عليه نظراً سريعاً ثم يرمي به
جانباً ، ويترك ذلك مسفع الوجه ، ثم يعود اليه فينفذه ، لم
يستقر رأيه على واحد . عجباً أليس في هذه الكتب جميعها
كتاب واحد يصلح للمطالعة ، فلم يقتنيها اذن ؟ قامت في
نفسه ثورة فهم بتمزيقها جميعاً وطرحها طعاماً للنار ، يا ضيعة
الدراهم التي انفقها على شرائها ، وضیعة الوقت الذي افناه ، واقفاً
بباب حانوت الكتيبي يسائل عنها كمن يسائل عن حبيب
تائه ، هذه الكتب التي شاركته في عمره تأكل من نهاره ومن
ليله ، هذه الكتب التي طالما عانقته الى الصباح غافية على
صدره وقد سقطت من يد شلها النعاس ، ألا تقدر على تفريج

كربه الساعة ؟ وراح عمر يردد بصوت عال كالأهل :
نعم ، نعم ، هذه كني عرفتها جيداً ، ولكني لا أريدها
الآن لي بل لهند ، ومن الصعب أن يسلي الكتاب امرأة ، ثم
اطمأن على قهقهة خبيثة وسري عنه كأنما اهتدى إلى ضالته .
الشمس تدلف إلى الغروب ، وذرى الشرقي تسطع
تحت أشعتها فتزداد احمراراً وماء البركة يتأوج تحت أنفاس
النسيم يداعب أغصان الصفصاف المتكى على جوانبها ،
وشجرات الحور القائمة في البستان الذي يصاقب المراجعة
تعارض الأفق الغربي ، تطفئ كلما اشتد الظلام ، فإذا ملمت
الشمس آخر خيط من النور ، أخذت حمرة الشرقي تتكدر ،
وأخذ الظل يغطي بمعطفه سفوح الغربي فيمحو ألوانها ، ثم
يزحف فوق الجبل ، فيسلب الشفق رداءه المقرمز ، ويسود
الأشياء وتتلع الأعناق حتى لكأن السماء تقترب منها فتذر
على رؤوس الحور والصفصاف نجومها ، فإذا سقط منها في
الماء انجم من خلال الأوراق والأغصان ، رجفت من الذعر
أم رقصت من الفرح وما تزال كذلك حتى يطلع الصباح .
وفي هذه اللحظة كان يغمر عمر شعور غريب وهو
منبسط النفس إلى هذه المناظر الخالبة ، وعلى شفثيه آخر ما في

الكأس من خمرة .

لم لا يكون هو ؟ الحكيم الذي غلغل في سر الحياة
وعاد وفي يده كوب من خمر والى جانبه حبيب . عاد الى
الوجود رجلا من لحم ودم يرى وجنة حبيبه الصفراء ، فيميل
عليه بالخمرة حتى تشعشع وتنضر ، ثم يعطف عليه ، غني !
فلا اريد ان اسمع في الوجود الاك ، وارى الاك ، وهذا
الزق والغصن والقفر ، تعال نهب اللذات ، قبل ان يطوف
علينا الساقى الازلي بكاسه المريرة ، فاذا صرنا الى بطن
الارض ، فلن نعود من رحلتنا ابداً . نعم لم لا يكون الخيام ؟

*

خذي يا هند ! هذا عمر الخيام ، شاعر فهم الحياة منذ
تسعاية سنة ، باحسن مما نفهمها اليوم ، وهذه كتب
اخرى ، ولكني على مثل اليقين ، من ان الشاعر سيكون
ادناها منك ، واحبها اليك ، دس عمر نصحه من غير حذر
ومشى .

ترى هل للكتب على القاريء هذا التأثير الذي نتخيله
اذا كان لها من تأثير على الاطلاق ؟ وهب ان لها ذلك ،
ولست هند طرية اذا كرهت فتنتطبع عليها الافكار بسهولة ،

ولا هي طفلة العقل ، فتتشرب المباديء التي تراد لها من غير
شدة . وفي كل حال ، ان لم يكن للكتب تأثير عامل ،
فان لها على الاقل تأثيراً موقظاً ، فاذا صادف الكلام منها
موضع حس ضربه فتنبه ، وتفتحت معه آفاق من الحياة
جديدة ، نحس لها بتجدد في كيانتها ، ثم ينقلب هذا الشعور
المشبه بكثرة التردد الى حقيقة نوؤ من بها ، وندفع في
سبيلها ، وتكون العقيدة بانية او هدامة ، ويكون الكتاب
طيباً او خبيثاً .

وراح عمر يوماً يتفقد خيامه الصغير وقد تركه الهية
في يدي هند ، فوجد المرأة قد حفيت به ومحضته الود ،
فشب في نفسها وقوي بدون ان تريد له ذلك ، كانت تتلهى
به ، فاذا الخيام الكبير يخرج عليها من تضاعيف الكلمات
والسطور ، فيغزوها بحكمته وسخره فيقهرها ، وتصبح العوبة
له ، يرتفع بها تارة الى أجواء من الاحاديث يمن عليها العدم
الرهيب ، ويمشي بها اخرى في مسارب من الايمان ، بلغ فيها
الحب والثمرة الركب .

قالت يا عمر ، كانت نصيحتك ثمينة ، ومن الحق ان
شاعرك محبوب ، ولكنك جبار خطر ، تعرفت اليه من خلال

شعره ، وصاحبته في خلواته في الحان وفي القفر ، وروحاته
الى ضفاف السواقي ووقوفه على الاجداث الدارسة ، وعشه
بالغيب ، فرجعت اعرف اشياء كثيرة ، ولكن اهم ما عرفته
هو اني عدت لا املك شيئاً حتى الايمان ولا ادخر شيئاً حتى
الغد ! فيا لضلال المعرفة ؟ وماذا يبقى امام المرأة اذا فقدت
ايمانها وضيعت املها ؟ ثم نهضت مضطربة تقول : احس هذا
الثدي ينفج الثوب ، وثورة في كل مكان مني ، وانت
وشاعرك السبب ، فاخرج من هنا ، اخرج قبل ان . . .
يا لكبرياء المرأة ! حطمني ها انذا . ولكنه لم يكذب
يلامسها حتى تلاشت على ذراعيه ، لا . . . ضمني الى
صدرك . . . اوه . . . اكثر من هذا . . . خلنا هكذا للابد .
ولم ترد هندا ان تفتح عينيها مخافة ان تفسد عليها اليقظة لذة
الروئى وما كانت حاملة ، واخذ الفتى يجمع عن كتفيها
شعرها المشعث وادنى وجهه المحمر من وجهها الوادع كرة
اخرى ، فاخذت شفقتها تندلق غيثانة ظمالة ، واخذت
اهدائها تتحرك ، وراعت هذه اليقظة ، وراودته الشهوة
الطائفة بها ، فغمر وجهيهما بشعرها وعادا الى حلمهما الاول ،
كأن لهذه الستارة الخلق ان تجبهما عن العالم .

وتأبى مطالب الحياة الا ان تفرق بين الحبيبين فينتقل
عمر باهله الى دمشق بغير وداع وعناق ودموع ، ثم يعود الى
بعليك ليقضي بعض حاجته وفي النفس حاجات ، فلا يمكنه
ان يجتمع الى هند الا بين العيون فيعود خائباً الا من رسالة
دستها في جيبه في غفوة عن الرقباء ، ستكون زاده طوال
رحلته ، وكتاب ايمانه اذا راودته الشكوك رجع اليه
فاطمأ قلبه . ولم يكدر يستقر به مقامه حتى كتب اليها :
يا هند ! هند !

وكل ما لي من التذكارات ، هذه الشعرات اطبع
عليها قبلة ذائبة بنار الالم ، فالله الله يا ساعاتي الجميلة ! كيف
افلتت من يدي ابق الدينار من يد المعدم . كل ما في البيت
نائم الا قلبي المرجع بدقاته صدى خطوات الوقت الراحل
والا قلبي الساكب آخر قطرة من ماء شؤنه على وجه
القرطاس الذابل ، وصلت الى البيت مساء البارحة ، فعاقني
امي واخواتي وقبلنني ، انهن يحبنني كثيراً — وما اجمل
ان يكون الانسان محبوباً — ولم يترك لي الزائرون الثقلاء
فرصة لا كتب اليك فلجأت الى الليل اشكو وابث ، فخذ
يا ليل غني .

قرأت كتابك ، فاحسست بنار الالم المحترقة فيها كلماته
تأكل فؤادي . هذه الكلمات الجارية على طبيعتها ، الزاهية
ببساطتها ، خارجة من قلب يحب ويحبنى انا ، ويلاله كنت
ما اكفرني !

تطلبين اليّ ان امكث يومين ، وحبك يميناً ، لو
قدرت على قراءة الكتاب قبل الفراق لفديت ساعات الملك
بكل ما املك من راحة ، ولكن شاءت الاقدار ان يكمل
بوئي ، فسقتني كاسها ، فشربتها حتى الثمالة ، فاغفري
يا هند لبائس ليس كالبوءساء اساءة جرى بها القدر بغير
رضائه .

صوني صحتك واحفظي قلبك لشاعرك البائس فانت
قيثارته الوحيدة التي يضرب عليها انشودة حبه ، ها انا بعيد
عنك وقد سكنت قلبك الخفاق يا هند . لك الهناء قد
كنت احسب ان البعد يطفيء من نار الجوى المضطربة
فاذا هو يزيد لها اشتعالا .

هيات ، هيات لن يسكن من الي الا عيناك
المنشدتان اغنية الحب . والافك الباسم عن نور الحياة
اللاأ .

السماء تتلجج ، والموقد يشتعل ، وللقب نار ، وبين كل
هذه النيران احس ببرودة الهواء ، واشعر بصقيع الارض
يدب في اطرافي ، كما تدب البرودة في جسم قريب العهد
بفراق الحياة ، رحماك اللهم .

مريني يا هند اعد الى قربك ، ثم افعلي ما بدالك من
صد وتيه ودلال ، فاني احتمل واحتمل الى النهاية .

اذا نظرت الي جانبا بين يديك ، ربما تحركت فيك
عاطفة الرحمة فترحمين ، واما بعيداً ، فالايام تسليك ، والليالي
تنسيك . اني احتاج الى كثير من العطف والرحمة ، ولا
حنو امي ولا عطف اخواني اشبع نفسي وروى غليلي ، وانت
انت قاسية ظالمة ، كم املت ان يكون زادي الاخير منك
قبلة تطبعينها من شفئك الملتهمتين على . . . فاذا انت كبرياء
و كبرياء ، واذا انا ضحية باسمه ، لتحي كبرياؤك ، ولتعش
هند الظافرة .

هذه زهرات من البنفسج تفوح بعير حبي :
هل رأيت يا هند اجمل منها زهرات نواعس الاجفان
فاذ كريني اذا شمت شذاها فهي رمز لمهجة الوهان
فخذها اليك وانضحي ذبولها بعطر منك عليها تنضر .

بالامس كانت هذه الزهرات
فوق الغصون وفي الزهور حياة
فتناثرت فوق الاديم لتنتهي
ومن الزهور الى الحياة عظام
لم تسمع هنالك هذه النعمة المحزنة يا شاعري ؟
ألم تر البلبل كيف يغني زهرته انشودة الحب ليتفتح
قلبا على نغمت صوته ، ولما تطاع ذكاء ! وهنالك
ضحكة .

عاشت لك البسمة يا هند ! فهي لغيري .
وعاشت لي آلامي ، فهي لي ولي وحدي .
وغداً او بعد غد سارك قريبة ، كما انت بعيدة ،
تبسمين وتبسمين !

وماذا سيكون لي منك !
تمدين الى يدي المرتجفة يدأ راعشة لتفعل بسرعة .
خوفاً من الناس ، قاتل الله الناس .
وبعد اليس البعد خيراً من القرب ؟

« عمر »

« وقد زعمت الى تغيرت بعد هذا »

الى هند !

اعاتب مهلا .

كتابان ولكل كتاب جوابه ، ومن وراء ذلك قصد
في المحبة ، اللهم انها لظلامه ! ما أوهى القلب في حمل رشق
سهام العتب ، هذا القلب الذي لم يترك الدهر بين حياته هدفه
لرام ، فكل سهم تريشينه يقع على اخيه ، وفي جرح دامل
يدميه ، فالله الله في قلوب البائسين .

دهر يجري على غير ما يرضي ، وقدر بما لا يسري يقضي ،
وبئس بين قسوة ذاك وظلم هذا يكاد يقضي ، رحماك ربي !
على الشرفة ، والليل في روعته وللنفس وحشتها وفي
السما بدر تأتلق انواره ، يرسلها في الارض وفي الفضاء
فتضي كل شيء وتضي ظلمة النفوس .

الليل في روعته ، وانت على الشرفة وحيدة ، لاتسمعين
الا نبضات قلبك بين جنبيك ، والا وثبات نفسك في خلايا
جسمك الحساس ، نزوعا الى الحرية ، الى الحياة ، وثورة على
التقاليد النائمة في احضان العقلية المتحجرة ، والظلم الراي
بالوراثة العقيمة .

وان هو الا ان يهدأ القلب وتطمئن النفس وهنا وضعفًا
حتى تثور العينان كالبركان المتفجر ، ففي كل مكان دموع
هذا سر بكائك ، فابكي ما تشائين ، فليس مثل الدمع يخفف
الحزن ، ويبرد الغلة ، ومتى ارتوى خداك ، اعيري عيني دمعها
فان دمعي غصبي ، ويا طالما استجديت العين عبرة تخفف لوعة
الاسى ، وتطفئ حرقه الجوى فاذا هي عنها امنع من الموءلوءة
وابعد عن يد الفقير المعدم .

اطلب قليلا فلا افوز بالقليل ، ووالله لولا بقية عزمات
في قوارة النفس ، وآمال تهالك بين صدمات الشك وهزومات
اليقين ، لما عقلت من ثوب الحياة بظفر ، ولجعلت غدي آخر
ايامي عندي .

فما تنكرين؟ ولولا ان لي من هذا الحب سندا اتكئ
عليه لتهدم جسمي الناحل تحت ضربات الحدثان . فاما تعانتي

فعاتي الزمان .

استقرب الايام لعل يوما يأتي وفي غرته تبشير السلام
ولكنها ايام ما اسفت منها على راحل ، ولا اهلت بقادم ،
اعجب لامري ، يستدرج خطوات عمره الى الفناء ، كأن
السعادة كائنة فيما بقي منه ، والشقاء قد مضى في الذي مضى .
وبعد . فان الدهر ضنين بالهناء ، ولهذه الايام حسبت
حسابا يوم كنت استكثر من اويقات الاجتماع ، ذكريات
وفي كل مكان ذكرى ، فلنغش عليها زمنا ، حتى يغير الدهر
دورته ، وما اصعب العيش على الذكرى ، فانها تكشف
الرماد عن نار القلب الخبوءة ، وتثير جوى النفس الدفين ،
حين يكون الانسان في اشد الحاجة الى الطمأنينة .
تسأليني عن حوادث ما كان لي ان اطرق الباب اليها
يوماً ، فانا اجهل كل شيء ، وللنفس شواغل بالنفس عن الناس
وما تعرفين من هذه النفس الا ظاهراً قد يسر الناظر اليه ،
وهو جهد ما بلغت اليه الحيلة .

«عمر»

الى الورقة المتحمسة مع نسائم الصباح ، الى الزهرة
الظامئة على ضفاف السواقي ، الى الملتهبة حراً في الظل الظليل

الى المنكشة برداً في حمارة القيظ ، الى الريشة الطائرة في
مهب الريح ، الى هند !

احبسي العواطف ، واطلتي العقل ، عسى الحبس يخفف
من ثورتها ، فما العاصفة ؟ ولعل الحرية تلك التي تنشدينها
في يقظتك ، وفي حلمك ، تقشع عنه ستاراً تنظرين من
ورائه الى الاشياء نظرة مزورة ، فتفهمين غلطاً ، وتحكمين
ظالماً .

ليست النفس آلة كاتبة ، تقدم لها الافكار والعواطف
فتنطبع عليها ثم نوزع من نسخها على الناس المئات والالوف
صفحات متشابهة قد لا تساوي ثمن الورق ، لا ، فالنفس منشأ
العواطف وغديرها الذي تنعكس الافكار عن مرآته الصقيلة
فهي اذا لم تتألم ، ولم تثر ، فتخرج حمماً او نوراً ، فلا سبيل
الى العاطفة ، وكل شيء بلا عاطفة جماد .

ربما تقف النفس مشاعرها على منظر رائع من مناظر
الطبيعة ساعات طويلة ، فاذا اجفلت عنه اجفلت لوقت طويل
فهي شرود بطبيعتها ، كذلك هي عندما تطالبين منها الغناء
وقت الحزن ، فان اناشيدها تنير الاسى لا السرور ، وهي مع
كل هذا لا تتروع بما فيها من اختلاف الوجوه ، كالبحيرة

بيننا ترينها هادئة اذا هي تشور وتندفع مغضبة الى الشاطئ
حتى اذا ارتمت على صخوره رجعت عنها مقهورة ، وهي دائماً
تلك البجيرة .

كل شيء في مكانه ، فلا يخيفك شيء ، قد يتجهم
وجه البحر تارة وينبسط اخرى ، ولكن السفينة الجبارة
ما تزال تمخر عبابه في غير تهيب او وجل ، وان من طبيعة
البحر ان يشور وان يهدأ ، والطبيعة على هذه الكائنات حق
من الكفر انكاره .

وصلتني كتبك كلها ، فلم يته منها كتاب ، فسكني
من روعك ، وكما اني لم اعجب لتشابه النعمة في الاربعة
الاول ، لم انفر لاشتباهاها في الاخير ، ولقد اردت ان
تخرجني من الضعف قوة فمثلت الدور بمهارة ، كبرياء المرأة
اغبطك عليها ، ولكن جناحيك الضعيفين لم يحملاك طويلا
في ظيراتك فلم تلبثي ان وقعت - ليس على الارض - بل
بين ذراعي .

اردت ان اجعل لكتابك «الاخير» اثرأ في نفسي -
ليس مرأ - فبالغت في حفظه ، كيف لا ؟ وفيه «وداع وولد»
أولد وحييب ؟

جارك الغيث يا ايام الطفولة ، فلکم کنت طيبة على
القلب ناعمة على البال .

وبعد . فان النفس نهب موزع بين وبين وبين . واحسب
انها اجدر بالرحمة من الغضب ، واولى بالعدر من العدل .
هذا كتابي الرابع اليك . فما اظنه الا داخلا في الحساب
- ليس كالكتاب الذي قبله - أليس كذلك ؟ ولنهب ان
كتابك «الخير» الذي فيه الوداع «الخير» غير داخل في
الحساب فتكون الكتب متكافئة ، اربعة لاربعة ، فلا علي
ولا لي .

ولكن هذا الحب الذي ينقطع في رسالة ، ويتصل
برسالة ، أمشود بخيط مصيئ ؟ الحق اقول لك ، لم اعد
أمنّا على نفسي ، والحبال رخيصة .

لقد طلبت «ورقة صغيرة» جوابا . ولأريك من كرمي
ابعث اليك بهذه الرسالة الكبرى ، واطلب الجواب بدوري
«ورقة صغيرة» هل تضنين ؟ ربما .

مضى زمن طويل لم نتباوس ، فكيف تريدان ان اترك
قبلاقي ، وهل توفيتني ديني ام ارفع دعواي ؟ . . .
ربما احضر ليل الثلاثاء مع القطار ، ربما . «عمر»

على الذيل - اراني امجن ، انا الذي لم اعرف للحياة وجهها
ضاحكاً ، ولا قدر لي ان اترسم للسعادة طيفاً ، وقد يهز
اناتك المجنون .

او تريد ان تسمعي شكواي ؟ ما تعودت ما تعودت
بل اعتدت ان ادفن كل شيء في قرارة النفس ، ففي
نفسي تجدني كل شيء ، لو استطعت الخلوص اليها .

اردت لك ان تكوني امرأة فرداً ، تسابق الفكر في
جريه ، تطير آونة على اجنحة الخيال وتدرج اخرى في مسارب
النمال ، فاذا انت امرأة ككل امرأة ، واذا كانت المناظر
الخلابة تستهوي لبك ، فسأل بس لك كل يوم ثوبا جديداً .
فاتركي النفس تثور لتسكن ، او تسكن لتثور ،
صفحة من صفحات الحياة فتحت ولا بد ان تنطوي .

وما كان اهنأ العيش بالقرب منك ، فليت تلك
الايام لم تتصرم ، وهل تنفع ليت ! ان ايام الهناء تحضر
كلا حلام ثم تذهب سراعا تاركة ذكريات اليممة ، اما
ايام الشقاء فترسو طويلاً ، حتي ليخيل انها شدت الى البقاء
بامراس .

هكذا العيش دمة فابتسامة ، او بالاصح ابتسامة

قدمعة ، اذ لا نلبث ان نتذوق حلاوة البسمة
حتى تمحو مرارة الدمعة كل حلاوة ، وفي البسمة لذة
وفي الدمعة لذات ، ونحن للدمعة مدينون لان كل اللذات
منها ، ولولا الالم لم نعرف الى السعادة طريقاً .

ترى هل يقدر لهذا الليل الخالك من القلق ان ينفرج
عن غرة الامل الواضح ؟ فقد سئمت النفس عيش الشك
والوهن . وكل شيء حولي ممل مضجر ، فالى اللقاء .



« سأعود بعد يومين » هذا ما قاله عمر لأمه وهو يترك
البيت ، ولم يأخذ حقيته الصغيرة ، ولا شيئاً آخر مما اعتاد
ان يحمله في سفره ، وكانت جادة الصالحة خالية من المارة ،
وعجلات الترامواي تمر بين الفينة والاخرى ، حاملة في
صعودها بقية الساهرين ، وتكد تكون فارغة حين تنزل
وتلتفع دمشق في الليل بثوب من الهدوء تنام تحته مبكرة في
جو تعبق فيه رياحين الحدايق والرياض ، تنام المدينة الساحرة
على حياة دقيقة النبض ناعمة الحواشي ، يمورها وسوسة الحلى ،
وأهات الحب المحتقة على ضفاف الانهر ، فاذا ترنحت الاعطاف
وصرعا الخمار غفيت باحضان الصبح ، وان للدمعة الجسارة

التي نشاهدها على الوجوه صلبة وثيقة بجو دمشق وما يحمله في
معاطفه من جمال في الطبيعة وذخر بالتاريخ .

أخذ عمر محله في القطار قرب النافذة وكانت المدينة
غافية تحرسها أنوار ضئيلة متفرقة ، تبين عن معالم لا تستقر
في العين ، فإذا تحرك القطار تحركت حتى لتتخالها أشباحاً
تطوف بالمشاعل . وتبدو « المهاجرين » كالرأس المرصع
كلما أوغل القطار في سيره هابطاً الى « الربوة » ، اتلعت هي
عنقها الى مشارف الجبل ، فإذا صاقب بردى بين صفصافه
وحوره وأذنت الصافرة بالوداع ، ارتقت على احضان قاسيون
واستسلمت للنوم .

في القطار

وراح القطار يتلوى وينساب في جوف الظلام كالحيمة ،
وقد حجب الليل الاشياء بردائه فلا تطل من النوافذ على
لون لها . ولست تراها تركض الى جانبك عكساً كما تفعل
في النهار ، فالقطار الان يضطرب ، والابعاد معدومة
المقاييس والاشكال ، ولولا صغير القاطرة ووقوفها عند كل
محطة ، لظننتها تضرب في قلب الليل وتهتز لكن
لا تمشي .

وكان قبالة عمر على المقعد ، رجل عليه وقار السنين ،
تداعب لحيته البيضاء صدره ، وفي الزاوية قرب الباب فتى
في ميعة شبابه ، وفي يد كل منهما كتاب يطالعه على ضوء
المصباح الضئيل المعلق الى سقف الحجرة . وانفت الشاب
الى الشيخ يقول له : لست اشاطرك رأيك في ان

الادب في هذا البلد يميل الى الرخوة والتفكك ، وانه محكوم عليه بالفناء كادب ، وانا على العكس منك ارى ان ادبنا الجديد ينبض بالحياة التي نحيا ويصور بأمانة الشعور الذي يخالجنا ، وانه ما زال كذلك فهو ادب الحياة الخالد بخلودها .

قال الشيخ : انا ما اردت ان اضع للادب قواعد واصولا هو اجل من ان يتقيد بها ، ولما اردت له عناصر من الانسجام والقوة تترع الحياة فيه بالنضر ، فاذا كان ادبكم يعبر عن الحياة بشباب مريض متخاذل ، فانا اطلب ادبا يمثل الحياة بشباب يفيض بالصحة والانسجام والقوة ، كلاهما ينطق بالحياة وكلاهما يشبه الاخر ، ولكن الايماء والروعة فيها يختلفان ، قال عمر اسمعالي برأي : عندي ان الادب هبة وصنعة ، واما الهبة فمنطقة كانطلاق الكهرباء في الاجسام ، فهي من وحي وفكرة وشعور ولون وجو ، واما الصنعة فهي قدرة الفن على التاليف بين هذه العناصر كلها وسكها بقوالب رائعة ، فالادب صنعة في هبة .

قال الفتى : لا احب القوالب لانها جامدة .

وقال الشيخ : ان فنك الذي تتحدث عنه غامض وانا

احب البيان .

فقال عمر : الادب كالمرأة كل ما كانت غامضة كانت

لذيذة .

وهنا صفرت القاطرة صغيراً متواصلاً ، ثم توقفت عن
السير و كثر اللغط وتعالى الضوضاء وهرع الركاب الى
النوافذ مدفوعين بحب الفضول ليروا اى امر حدث فلم يثبثوا
شيئاً لشدة الظلمة ، ومرت برهة فخفت الاصوات وعادت
العجلات الى الدوران ، واستقر كل في مكانه يهيم النعاس
برأسه ، ودخل المقتش يتفقد المسافرين كعادته وكان رجلاً
لطيف المعشر ، انفق خمس عشرة سنة من عمره فوق هذه
القضبان الحديدية السوداء ، يعرف فيه زبائنه حب العشب ،
والنكتة دائماً على لسانه ، يصغون اليه وهو يرسلها بين بطن
مندلق يرتج على الضحك فتخاله يقع الى ركبتيه ، وبين
وجه يتسع فمه وتتقبض عيناه ، وتبدانى غضونه ، ويطفو
عليه ملمح جاذب تنبسط عليه النفس ، ويمضي في ندره حتى
ينثل جرابه . كان في هذه المرة تبدو على وجهه امارات
الاهتمام ، كفكف لهائه ورفع ذراعيه باستقامة صدره ،
ونفض يديه كمن يدفع عنها القدر ، وقال : كاد السائق
المسكين ان يزهق روحاً لولا القنديل الساهر على الخط ،

لقد حنقت على الرجل لانه ايقظها ، ما هذا الحلم الذي لم يهره
فحيح القاطرة وصغيرها ، انها لمجنونة .

— ولكن من ؟

— امرأة !

قال الفتى : امرأة في هذا الليل البهيم وقنديل ؟

وقال الشيخ : وتموت على القضبان ؟ قال عمر وقد هز

رأسه : المرأة في كل مكان .

وراح القطار يغذ في سيره ، وقد اطل الصبح على كنفى
الوادي ، واخذت الاشياء تستيقظ من سباتها وتخلع اردية
النوم ، وبدا النهر عند المنعطف يتلوى مدغداً اقدام (يحفوفه)
توقف قليلاً ثم ترك القرية تفتح اجفانها وتمطى ، ولم يكده
يترك الوادي حتى استقبله سهل البقاع الضاحك لمطلع
الشمس ، في مشهد فذ تخال السماء كورت على الارض
وانتهت الدنيا على قمم لبنان . وتهب على هذا السهل في غالب
الاحيان شالية حارة في الصيف ، قارسة البرد في الشتاء تعدن
اياما معدودة حتى تناوحها جنوب فيعتدل العedan . وكان
الصباح راجفاً تحت انفاس الشمال وقد بللت حواشيهما على
ضفتي الليطاني . وكان عمر مضطراً ان يستبدل بقطاره القطار

الذاهب الى حلب ، فودع رفيقيه ، ورفع قبعة معطفه على
عنقه ، ووضع يديه في جيبه ، واتجه الى غرفة فارغة فاستقر
فيها ، ولكن نفسه لم تستقر فيه ، والصفرة تمر كالسهم على
احشاء السهل الفسيح لا تلوي ولا تضج ، تحمله الى البلد
المقصود ، بل ان معالم بعلبك اخذت تلوح ، وها هي العواميد
الستة تدلف الى لقاءه على انقاض الهيكل تسندها اكف
جوبتير ، ترمز الى مجد هذا الاله الخالد في فن عبده الذين
ضحوا بمواهبهم وعبقرياتهم وجمالهم على مذبحه الذي لا يروى
الخالد في عباد فنه ورواده من اقاصي العالم ، الى ان يفنى الفن
من الارض ، ويغيب الجمال ، ولن يفنى الفن ولن يغيب
الجمال .

واخذ عمر يتصفح الوجوه في المحطة عساه يرى وجه
هند ، فلا تقف عينه الخيرة على واحد منها ، وهو لا يدري
لماذا يفعل ذلك وفيه مثل اليقين انها لا تأتي ، وانها ليسا على
هذا الموعد ، ولكن العشاق غير الناس ، يتطلبون صورة من
يحبون على كل وجه ، وفي كل مكان لا لانها تفضل كل
الصور ، بل لانهم يحملونها في عيونهم ، فلا يرون الاشياء
الا من ورائها .

وكان نجيب وهو سائق عتيق ينتظر على عربته متفققاً
وقد كبس رأسه في طاقة صوفية ، وادخل يديه في ردينه .
صعد عمر الى العربة واستند الى الزاوية اليمنى ولف رجلاً
على رجل ، ولطم السوط عرف الحصان فسارت العربة
تهبط وترتفع على الاخاديد والحفر ، حتى اذا شارفت المدينة
التفت السائق قائلاً : « الى انبيت يا معلمي » ، فانبه عمر
مذعوراً كأنه يفيق من حلم بعيد ، والتفت الى جانبيه ، فوجد
نفسه في قلب البلد وعلى قيد مئتي خطوة من البيت ، والعربة
تجري فاستوقفها وصرف السائق ، ثم وقف في مكانه
لا يبرحه كأنه تسمر اليه ، فالى اين يذهب ؟

هوذا بيته الذي تكشفت الحياة لعينيه عن تربه وورده
وسمائه ، فيه مدارج طفولته ، وملاعب صباه ، وعلى كل
شبر من ارضه الخرساء الف ذكرى من عبث وعبس ، ومن
مرح وبكاء . هنا شطر عمره الغض ، وتاريخ شبابه الثائر
في هذا البيت شهد الموت يصارع الاب والاخ فيصرعهما ،
وشهد الحياة تكشر له عن انيابها ، وتدفعه بمخالبها العاتية
فتدميه ، في هذا البيت ثمانية وعشرون عاماً منه ، تحيا منساخته
بعيدة عنه ، ذلك ان البيت لم يعد ملكه حين حالت الدنانير

العسجدية بينه وبينه . عجباً لهذا الاصفر المخادع الذي يقرب
الابعاد ويصل بين الاشياء حيث تنعدم الصلات ، كيف
يقف سداً بين المرء وبعضه ، ليس هو غنى الاغنياء الذي
انتزع منه بيته الموروث ، ولا الفقر ، ولكنها حاجات
الكرامة ، وهل المال لشيء اكثر من قضاء حاجة ؟

اي شيء يربطنا الى هذه الجمادات التي ندعوها بشره
(بيوتنا) ؟ أهو غرور التملك ياترى ؟ ام ان هذه الروابط
تتجاوز المادة الى اشياء اسمى جرت في دمائنا ، ونمت مع
عقولنا ، واختلجت عليها قلوبنا ، فلا يمكننا الانسلاخ عنها
او الانفلات من تأثيرها ، لست ادري ، ولكني لو اعطيت
القصور الشاهقة ، لا انفك احن الى هذه البقعة الضيقة من
الارض ، التي لاصقت قلبي ، واصخت الى دقاته الاول حين
كنت اعثر وحين كنت انام ، فيا مهد حياتي الوادعة ،
لقد شطت بربيبك النوى ، ولما عاد اليك ليطمئن في جانحك
كاد يتسوه على بابك الموصد ، ويا ذكرياتي السجينة
سلام .

كاد هذا الموقف يشغل عمر عن نفسه ، وعن الامر
الذي جاء لاجله ، لولا يد وقعت على كتفه تربت عليها ،

فالتفت الى اليد التي انتشلتها من غمرته فاذا هو امام احد
رفقاء الطفولة ، سر كلاهما بالآخر في غير دهشة ، وتصافحا
واخذوا باحاديث لالون لها ، ولا صلة بينها ، غير انها مفككة
وخفيفة تموت على الشفاء بدون ان تترك اثرأ بعدها ، وافترقا
على ابتسام كما التقيا ، وكان عمر اوسع بسمة من رفيقه ،
لان في امتداد ابتسامته كان شيء من السخر من نفسه يسمع
في شبهة قهقهته في اعماقه .

او يذهب الى هند ؟ ولكن فيم التساؤل ؟ وهو على
باب منزلها يكاد يدفعه بانفه ، تقوده قدمان لم يدر أ كان
يطأ بها الارض ، ام كان يمشي في خياله ، وها هي خادمتها
تعود باكواب القهوة المشروبة ، أزوار دائما ؟ الخادمة التي
حملت اليه كتاب المرأة ، هي بعينها .

هيه يا زلفاء ! وابتسمت زلفاء من الاذن الى
الاذن ، واخذت تتكلم بدون سوء ال « اشتقنا لك
معلمتي في غرفتها ، كيف الشام ، اليوم استقبلنا
عندها ناس ، تأخيرها و . . » لا ، لا ، انت طيبة القلب يا
زلفاء ! انصرفي الى عملك ، وساقوم بنفسي بهذه المهمة ،
وعادت البسمة تنتشر على وجهها ، ولكنها في هذه المرة

كانت ماكرة ، تشي بأشياء كثيرة احس معها عمر ان الخادمة
تهز الستارة التي تفصل بينهما وتكاد تنتزعها ، فقابلها بابتسامة
مثلها واتجه الى غرفة هند .

عنه

وكانت هند جالسة على مقعد يواجه الباب ، وعلى مقربة
منها سيدة رضية لنفسها ان تقف على الثلاثين ، تأنقت في
ملبسها والفضل في ذلك للخياطة ، و ارادت ان تكون انيقة
في ابراز محاسنها ، فلم توفق الى ذلك ، فبدأ فيها المخطوط في
الاحمر كرقعة في وجهه مطلي بالبودرة البيضاء ، تشي بسمرته
محنة انف يظهر انها لم تمر عليها كفها ، ومع ذلك فالسيدة
مزهوة بنفسها ، لا يغرها شيء مثل الثناء ، فاذا سمعت اطراءك
اقبلت عليك بالحديث ، تزم فيها تارة ، وتفرج شفتيها بالهاوين
اخرى ، وتشير بيدها ، فاذا رأت منك اقبالا ، رفعت صدرها
على نفس واسع ومالت بعنقها ، واغمضت جفنيها لتفتحهما
فتري تأثيرها فيك ، وتنتظر ان تصانعها ولو بابتسامة .
وكانت تتكلم عن فضائل العائلة والحب الزوجي مع

ان النزاع على اشده بينها وبين زوجها ، ويكاد يؤدى الى الطلاق . وكانت تتوجه بالحديث الى شاب انيق الثياب ايضاً ، يدع الابتسام ، بارع الغزل ، قضى شطراً من حياته في باريس يدرس الحقوق ولم ينته من درسه ، وكان شديد الانتباه اليها ، لا تفارق عينيها عيناه ، حتي اذا توقفت عن الكلام لاهثة اخذ هو باطرافه ، فاثني على فضائلها ، فراها تصغي اليه من غير ان تسمعه ، فاطري ذكاءها ، فجدت اليه ببصرها كأنها تنتظر منه شيئاً اكثر من هذا ، فراح يبدي اعجابه بجمالها وبهذا الفتون الذي يقصر عنه فتون الباريسيات ، فضحكت له واقبلت عليه تلقف كلماته ، ودار الحديث دورة فاذا الشاب يعرض مغامراته ، ولكنه عرض لا يحوي شيئاً من لذاة السينما ، وانما هو في مثل عرض الباعة المتجولين امتهمة كسدت في واجهات المخازن ، وغير منها كر الايام ، ولكنه لا يتورع عن نشرها كما استفرد زبونا جديداً .

وفجأة التفت السيدة الى عمر تسأله عن الشام . فقال ان الشام ياسيدي جميلة ، ولكن انت ؟ اراك كحبيب الآس في الشام كل ما كبرت حليت . انت ماردة على الشيخوخة ،

فلن تجسر ان تمد ميلها اليك لتضع على وجهك غضناً ، او
ترسم في رأسك خطاً ايض . قالت انك تبالغ يا عمر ،
فقال ان المبالغة ترفعنا الى جو من لذة النسيان فننعم ولو الى
امد قصير . قالت : والكذب ؟ فقال : اما الكذب فنعمته
اعظم ، واي شيء من السامة والحقد كان يسود مجلسنا هذا
لولا الكذب . فشزرت به واسبلت على غضبتها بسمة ولم تعد .
وتعالت اصوات الزغردة من مكان قريب ، فارهفت
الاذان ، وكان يتخايل بين اصوات النسوة الرنانة صوت
زجال ، فما كادت تسكن تلك النغمات المختلطة حتى تعالى
ينشد في بحجة كاختناق الوتر :

رمان صدرك دبل تا فرفكه بدي
لله ما اشد هذه الحاجة التي لا ترد ، قال عمر ، وما
اجمل هذا القول . انهم الشعراء هولاء الزجالون ، ومضى
الشاعر في عتابه والنسوة يزغردن له عند كل بيت .
وتوجه الزائرون الى هند يسألونها ، فقالت : عرس
بستانينا ، سيتعللون اليوم والغد ، ويكون الزفاف في الليلة
القادمة وستعلل زلفاء مع القوم ، قالت ذلك ، وقد رمقت
عمر بنظر خاطف ، وقفت به تأكيداً لارادتها على الخادمة

التي كانت تقدم لعمر كاساً من الماء . ولم يبق لعمر ما يفعله
بعد هذا الوعد ، فهم بالانصراف مودعاً ، فاسرت اليه وهو
يضغط على كفها ، نحن لنا الليل .

*

الليلة زرقاء ساهرة النجم ، والقمر يطل على الغرفة من
وراء زجاج النافذة ، ويحدق اليها بعينين صائبتين ، وهند
تنضو ثيابها ، يا للقمر ! رازحاً لا يبرح مكانه وقد خلع
الحياء ، عاشق هو الليلة ، انظري ، انظري ! ان لعبه يسيل
على ثدييك ، فاحجبي عنك هذا النهم ، او صدي النافذة
عليه ، نحن لنا الليل ، الليل الذي لا اقمار به تشر كنا ، ولا
نجوم له ترمقنا .

يا لك من نهم انت !

لست انا بل الحب ، فقومي نصب الحياة في اكواب
للحب لا قرارة لها . ولا الاكواب تترع ، ولا الحياة
تنفق ، اني اخاف الغد الفاضح النام ، وليس للذات من غد
الليل لنا ، فلنكن نحن الليل .

البستاني

هوذا ابو قاسم البستاني ، عريس الغد ، في قميص مثني
الصدر ، مسبول الى الركبتين ، بقبة غرقت فيها رقبتة الى
نصفها ، وسراويل ازرق شد عليه بزنا من القطن الاسود
على رأسه لبادة سوداء ، وفي قدميه نعل مسمر . جاء يدعو
معلمته الى حفلة زفافه ، ويستأذنها ايضاً ، تلوح عليه علائم
النشاط بين خمسين سنة رسمت خطاها على وجهه . ولقد
اثار فضول عمر ، ان الرجل يتزوج في هذه السن على رغم
(ابي قاسم) ، مع ان عادة الطبقة العاملة ان تبكر الى
الزواج ، ولا بد اذن لتلك الكنية من قصة ، ولهذا الزفاف
من سبب ، وراح عمر يسأل ابا قاسم ، في شيء من السخر
والفلسفة اللذين اعتادهما الشباب ، عند الكلام عن هذه
الطبقة الفقيرة العاملة ، او عند التحدث الى فلاح كابي

قاسم ، فيختبرون فيه آراءهم ، ثم يعدون كل ما يأتيه ضرباً
من السخافة أو البله ، ولو كان فضيلة ، وهل تسكن الفضيلة
بيوت الفقراء الخاوية ، أو تقيم تحت ثيابهم القذرة ؟ وهي لو
فعلت لاصبحت عيباً بمجرد وجودها هناك ، وكيف يجوز
ان تشترك الاشياء في الاسماء ، في القصور ، وفي الاكواخ .
وقال له عمر : لماذا تتزوج وانت في هذه السن
وابو قاسم ؟

فاجاب الرجل : ولي زوجة ايضاً ، هي ام قاسم ، ولكنها
لم تلد لي الا ولداً واحداً ، والفلاح بحاجة الى اولاد يعينونه
على اعماله الكثيرة ، ويحملون معه اعباء الحياة ، فأنا وابني
لا نكاد نفى بحاجات الفلاحة والزراعة ، ونقوم على بيع غلة
البستان والكرم ونحطب ، بينما تهىء ام قاسم الطعام لنا
وتحش البقر . وهي راضية عن زواجي ، فالمرأة الجديدة
ستوفر عنها كثيراً من المتاعب . وسنشتري بقرة حلوباً
تمصرف الى العناية بها فنوء من رزقاً جديداً ، وقاسم يريد ان
يرى له اخوة يساعدونه ويحبونه ، واما الرزق فعلى الله . لقد
اشتريت اول الصيف بقرة عجفاء بليرتين ، وصرنا جميعاً نحشها
ونعلفها ، واليوم صاحب الخمس عثمانليات ما يشتريها . ولكن

لماذا انت لا تتزوج يا عمر افندي ؟

اخذت عمر دهشة المفاجأة فلم يجب ، والتفت الى الرجل
فراه يمدق اليه منتظراً جواباً فقال :

انا ... وراح يسأل في سره ، ولكن لماذا ؟ وغشت
وجهه كآبة ، ثم انبسطت اساريره ، فقال : لاني احب
وتطلع الى هند مبتسماً ، كانه وجد شيئاً الضائع .

فقال الفلاح : غير قانع ، وانا احب ايضاً ، احب زوجتي
وابني ، واحب بيتي وبقراتي ، واحب الارض ، هذه الارض
التي نلتصق اليها اكثر من كل شيء آخر ، اعطيها من قوتي
ومن قلبي ، فتعطي الغذاء والسرور لي ولاطفالي ولكل
الاشياء التي احبها . ومع ذلك فاني متزوج الليلة .

شعر عمر لأول مرة في حياته ، بفشل مريع ، لعلمه
وفلسفته ، لشبابه وغروره ، واحس ان كبرياه تحطمت امام
سذاجة هذا القروي ، وبدت له الاشياء عارية من ازيائها
المصنوعة حين اقترب من الطبيعة ، وبداله فيها جمال ساذج
ساحر ، فصاح معجباً بالرجل ، انك فيلسوف من حيث لا تدري
فاذهب ! بارك الله لك في زواجك وفي اولادك في انعامك وفي
ارضك ، انتم الناس ايها الفلاحون ، لكم الحياة ، واما نحن ؟ .

نعم نحن لا نصلح لشيء ، ومرت امام عيني عمر صور
كثيرة للشباب ، فرأهم ينفقون الايام كسلا في المفاهي ،
يعلون صدورهم بهوائها الفاسد ، ويحشون رؤوسهم بسخافات
يسمونها نظريات ، وهم يتداولون (الشيشيش) ، او يقامرون
في زاوية ، ثم ينقدون ويقرظون ، ويمدحون ويهجون ، ويبينون
وينقضون ، ويسكنون ويثورون وهم على مقاعدهم رازحون
فاذا فرغ احدهم من الخلق والافناء ، واراد ان يستريح ،
ذهب الى الحانة ليقتل بالسلافة همه ، او لينسى نفسه ، فيصب
دنياه في جام ، ويجمعها على شفة . ورأهم يعمرون القصور
الشاهقة في الخيال ، وينامون على حصير مثقلين بالمحوم ،
ورأهم ...

بل ماله وللتناس ، لم لا ينظر في نفسه ، او ليست هذه
النفس مرآة الالوف منهم ، يحيون فيها تحت قيص من الكتان
البسيط . ان قرويا واحداً خاملاً يعيش على هامش الحياة
يتحدى بسذاجته نفساً جياشة الاما في بعيدة الاغوار ، فتخاذل
وتبدو نقائصها ، مخيفة ، معيبة ، فاضحة ، فهل الحب هو الذي
منع عمر من الزواج كما يدعي ؟ لا . لا . انه يكذب ، انه
يخادع ، ولا يكذب الفلاح وحده ، بل يكذب نفسه

ويخادعها ، فيسني لها الفسق حباً ، ويغذيها باللذة بدل السعادة
فيشبع شهوته الجسدية ، وتظل روحه جوعانة ، ولكم اتى
عليه حين تنعدم فيه الشهوة الجنسية ، وحين تتلاشي اعصابه
ان ينسل من ساعدي المرأة ويتمنى لو يشيعها قبل ان يضب
على جسده ثوبه ، بعين لا محتاجة ولا راغبة ، وفي نفسه بعد
ظماً لا يدري له سبباً ، ولا يعرف كيف يرويه ، كأن
الخلوقة المسكينة لم تنفذ الى ابعد من جلده . فاذا فكر
بالزواج ممن يحب ، خشي على حبه ان ينحره بسكين ذهبي ،
وهو يسمنه بجرمات الزواج ، كالعفة ، والصدق ، والحياء ،
فراح مذبذبا يحس بالضعف يعصف في جوانحه ، فلا تستقر
رجله على موطن .

أليس هو عمر نفسه ، الذي يتهيب الزواج ويتحاماه ،
هرباً من مسؤولية العيلة ، ومن رغبة الاطفال ، فيزن الاعمار
بالدرهم ، وبقيس الحياة بالدينار ، ويقف مكتوف الايدي
مشدوهاً امام ارقامها المرتفعة ، ويدعو نفسه بالنسر يملك
الفضاء ولا يجسر ان يبني له عشاً صغيراً ، يأوي اليه في ساعات
تعبه وسأمه ، وفي هنيهات راحته وسلواه ، بل في ساعة موته
بينما طائر صغير ، مهبط الجناح يبني من القشة بعد القشة

عشاً قد يكون أحب اليه من ملك الدنيا ، لانه دنياء الصغيرة
 فيجلب اليه الحب من اقاصي البطاح ، وينقل الماء من اعماق
 الوديان . وطالما فكر عمر بالزواج من فتاة موسرة تغنيه
 عن تكسب العيش ، وتقعده عن جهاد الحياة ، فينتظر
 الاقدار ان تحملها اليه ، بحلية كالشمس الطالعة ، تثقل عنقها
 اللآلي ، ويملاً حقائبها النضار او هو يدب اليها كالخشرة في
 طريق قدرة ، تقوده سمسارة تقبض على جاهه وشبابه وادبه
 في يد ، وتبسط اليد الاخرى لتقبض فيها الثمن ، كأن
 عهد النخاسة في رونق عزه ، وهكذا يود لو يبيع نفسه
 بيع السلعة وهو يتغنى بالحرية ويمجدها فيمايقول او يكتب .
 لقد سقطت الحياة ، حين لم يبق لها مثل اعلى الا الذهب
 الوهاج ، وسقط الشباب حين لم يعد لهم هدف ابعد من
 لذائذهم الشخصية وتغذيتها بالذي ينفس او يهون ، اما حق
 الانسانية الشاملة عليهم ، وارتباط حياتهم الصغيرة بالحياة
 الكونية الكبرى ، وحق الارض عليهم بال عمران ، فامور
 منكورة منهم ، لا يريدون ان يتعرفوا اليها سيلا وعرة
 تندي جباههم بعرق الحياة ، وهم لم يتعودوا ان يروا هذه
 الجباه تندي الا بعرق الحياء ، فتركوها للفلاح ، واغدقوا

عليه القابا مسكينة ، كاهبا سباب وشتائم في افواههم كالجاهل
والوضيع ، والقذر ، وهم لو انصفوا لادر كوا ان الحياة يقوم
نصفها الحي بهذا الفلاح ، وبهم نصفها المفلوج .
هل انكرت هند على عمر حيرته ، وادركت هذا
الصراع الهائل الذي اشتملت عليه نفسه ، ونمته اسرة وجهه
فوجمت وعلتها صفرة الريبة .

كانت تتطلع الى عمر منتظرة ان يستوقف الحب هذا
الراجل ، فيتقدم اليها ويأخذها بين ذراعيه ، ويعصر رفق
الحب فيها مرة اخيرة ، ولكنها ظلت تنتظر ذاهلة الى ان
ايقظتها اقدمه تخبط على البلاط وهو يخرج ، فاحست ان
شيئا فيها يتهدم وينهار ، فقامت الى المرأة فاصلحت من شأنها
وأثرت ان تترك الغرفة التي تخاليلت فيها المأساة ، ورف عليها
الموت بجناحه لحظة من الزمن .

ومرت بخاطرها ليلة الامس ، فاخذت تفتش في طيات
الظلام ، بين نزوات الحب ، وتبرج الشهوة ، فطلع عليها
الشك برأس دقيق قبيح ، مكشراً ، واصغت الى همسه الناعم
فاذا هي تردد « نعم ، نعم » لم تكن عينه تلك العين التي
اعرفها ، وكنت اقرأ فيها كما اقرأ في كتاب مفتوح ، ابن

ففيها لمعان الحب وذوب المذاة ؟ لقد تغير وافسده البعد ، وقد
ينسيه ، عمر ، عمر ! الويل لك يا عمر ! اسمح لك ان تذهب
بلا وداع وان تزدريني ، وان تحفوني ، ولكن لا اسمح لك
ابداً ان تحب غيري والويل لك اذا فعلت »

وانتهت ثورتها الصغيرة على وجه زلفاء الضاحك ، وقد
اخذت تسر اليها باشياء قبل مغادرتها البيت ، يظهر انها لم
تسكن غريبة عنها .

وصل عمر الى دمشق منهو كما كان هذا السفر الصغير
اجهد جسمه ونفسه ، فاستراح ليلته ، ولما ضحا النهار وتقلصت
ظلال الاشياء وحومت العصافير على السواقي ، كتب الى
هند :

هند !

قرأت في عينيك معاني الشك المتسرب الى قلبك ،
فحذار ان تقتربي من هذه التجربة ، فانها تسلب الراحة ،
ولا بد انك عاتبة لوقفتي الزاهلة ساعة الوداع وحق لك
العتب . لقد كنت غريباً عن نفسي تلك الهنيئة منسلخاً عن
الشعور الذاتي مضيئاً في غمر واسع الارجاء بعيد الاعماق
فكنت كذرة الغبار الهائمة في الهواء ، وكثيراً ما تعرض

لي هذه الحالة اللاشعورية فأعيش بها أياماً لا ساعات ، يطوف
بي الاسى الساخر من كل جانب ، ويساورني الضجر المقلق
واتنكر لاحب رفاقي الي ، فاميل عن رؤيته ، واهرب
من عشرته ، وكم تظهر غريبة هذه الاطوار للذي لم يخلص
الي .

يقولون ان الالم يزيد الشعور ويلطف الحس ولكني
اراه اذا تراكم وتواصل ، يقتل الشعور ، ويشل الاحساس .
وانا في هذه الفترات ، ممن يصح عليهم القول الثاني ، لذلك
لا تعذلي بل فاعذري .

ويقولون ان الراح يروح بالهم ، ولقد رأيتني كيف
اسكر لانسي النفس همومها وآلامها ، واذا ما استيقظ على
هذا الدل والنفور ، فعبثاً احاول ما احاول ، فالله الله لي
يا هند !

قلت لك انني بائس وشقي وفقير من كل شيء ، وقلت
لك يجب ان يكون حبك لي عظيماً بقدر بؤس وشقائي
ليقوى على حملها ، ليست الخمرة التي اوحث لي ان اتكلم ، لا
اني اعيد الان ما قلته بالامس ، وانا غير شارب ولا ثمل .
فما بالك ؟ أتريدن ان اكون فقيراً حتى من الحب ؟

انها لظلامه ، ولكن دموعك تلك يا لسخائها ، بل لعل
الامر ليس بيدك واني غير عاذر .

ان حبك ضعيف لانك انفقت منه كثيراً فيما سلخت
من ايام حياتك ، والبقية الباقية لي لا تنقع مني غلة ، الآن
علمت اني اطلب مستحيلاً فعفواً عفواً ! فانما الذنب للايام
ان تلك اخذت الكثير وتركت القليل ، لا لك .
« عمر »

ألى ليلي ام الى هند !

انتهت المرحلة الاولى من مراحل الحب ، وكانت ارضاً
خضراء ، وبساتين غناء ، ترقص المياه في احشائها ، ويتغنى
الطير على افنانها ، فتمتعت الطرف من ثوبها الاخضر الموشي
بالوان الزهر من متشابه وغير متشابه ، ونزهت النفس على
اغنيات الطيور وانشيد المياه .

ولكن الزمان لا يدوم على حال ، ولا بد لمن يعمل
رحلة هذا العمر ، ان يمر بارض قاحلة جرداء كما مر بالرياض
الغناء ، ولكل من هاتين جمال غير منكور ، وتأثير على
النفس يبعث الحياة في جوانبها الراقدة على فراش الراحة الوثير
او المتضجرة الكسلى ، لكثرة التشابه في العيش .

غير انك وقفت على باب هذه المفازة وقفة الجبان المتردد
يرقب كل شيء بعينين خائفتين ، فمشى رفاقك وبقيت لوحداك
حائرة .

الم ترى الى تلك التي تطأ الشوك بقدمين داميتين ، وعينين
لاصقتين الى كوكب الزهرة الوضاء ، كيف تحيا على الالم
وبلذة تحيا .

انك تعبتي يا هند ولم تدم لك قدم بعد ، فيا لك من
تعوب يا ليلي ! اردت ان يتغير اسمك من هند الى ليلي
الى ... واذا انت تتغيرين مثل ما يتغير ، كانت نفس ثائرة
وكانت نفس جائعة فشبت هذه ، وهدأت تلك ، ولماذا ؟
غداً تلجأين الى الدموع لرد هذه الشكايات والدموع
التي تريقينها تغلب كل قوة في ، ولكنني قبل هذا اريد ان
اعرف كيف تتبدلين ، ولم ؟ ...

او تحسبين اني اجهل . كلا . ولكن معرفتي مخيفة
وهائلة ، فما اريد ان اطلع عليك بها .

لعل كتابي الاول وصل اليك ، ولم لا يصل ؟ وسنجيدني
على الاثنين ، اليس كذلك ؟

« عمر »

هند !

عجباً ، ألم تصلك رسالتي الثانية ، فكتابك لم يشر اليها
قط ، ان حضوري الى حيث تمكثين الان يتعذر ، وربما
تركت جلق بعد مدة قليلة ، الى مدينة الجفاف والتعاسة ،
هنالك نلتقي .

لا تقولي بثست هذه الحياة ، فهي ان نعمت وان
بثست ستمر ، وكل شيء فيها يسخر منا ، فلم البكاء
ولم السهر ؟

رب عين ضاحكة آنس من باكية ، وطرف راقد امتع
من ساهر ، وقد يشجي البكاء وقد يضنى السهر ، وباطل كل
شيء في ذا الوجود ، الا الوجود ذاته . فمن قدر له ان
يتمتع بما يستطيع من اللذة ، يلمس السعادة اكثر من غيره
ومن ابتعد عنه ، يعيش في جحيم مهلك ، من نفسه ومن المظاهر
وليس من سبب في سعادة المرء او شقائه الا ليده ، هذه اليد
التي قد لا يكون مختاراً في تسييرها ، فتقبض على النار بينما
هو يريد لها والجة في الماء .

« عمر »

الى هند !

حقاً انك كثيرة العتب يا هند ، اتريدين مني ان

اكذبك حتى في عواطفي ، ذلك امر ما تعودته قط ، كان
زمان يحلو لي فيه الكلام ، وهذا زمان يجب الي الصمت .
فهل في الصمت رذيلة تؤخذ على المرء ؟
الا يكفيك اني لم اعط شيئاً مني لامرأة ثانية ابدأ
ليس لاني لا املك شيئاً اعطيه ، بل لاني لا احب الشرك .
ان المرأة التي تحب ، يشغل الحب كل حياتها .
اما الرجل فلا تتطلب منه مثل هذا ، اذ لو استغرق الحب كل
نواحي حياته لا صبح عدما . اليس كذلك ؟ فقليلا من
الانصاف .

« عمر »

الى هند !

ان الكتاب الذي عرف اليك الحب بالصورة التي
تحفظين ، منيع عليه ان يحوي بين دفتيه اثرأ من العاطفة
والخيال ، عجباً لهرءلاء الناس كيف يجسرون ان يوسعوا
بالمادة سر الحياة الذي لم ينكشف عنه ، وقوة الاله في
روعتها ، يوم خلق هذا العالم . فاطرحي هذا الكتاب اللعين
فليس الحب تقليداً ولا تفهماً . اصحيح ان الحب هو الذي اهاب
بك لتقولي لي « اذهب وارم نفسك في احضان الرذيلة
ربما خف ما بها من البلوى وعانق الغواني وقبل الفتيات

واشرب الخمر لتتقضي تسعة شهور كاملة واذا عدت الي
وجدتني بانتظارك»

ايتها المحبونة ! اذا انا افنيت بقية الجلد في حمأة الرذائل
فماذا يبقى لك غير حب بال ، او ترضين ؟ واذا تناثرت
عواطفي بين ايدي الحسان ، وعلى احضانهن كما تناثر اوراق
الزهرة الرطبة على الخضوض ، وتظنين انه يبقى لك من القوة
ما تنظمين بها وريقاتها الثيرة وتعيدن اليها رائحتها
ونضارتها . اجابني ؟ « عمر »

ولزمت الصمت هند ولم تجب ، فهل كان وقع الرسائل
عليها شديداً فحردت على عمر ؟ وانفت من الخضوع لفلسفته
وانكرت عليه تمرده النقي ، وكانت تريده ان يقول لها :
لقد اجبت داعيك الى ما اراد ، فوهبت جسدي لملذات ،
ونحرت حبي على شفاه الفتيات ، وشهدتهن يرقصن على جثته
رقص الفسق والفجور ويخضبن بدمه اقدامهن البضة ، و كنت
اصفق لمن فتدوي الدنيا في صدى كفي ، او شيئاً مثل هذا
يشبع الكبرياء الحاكمة التي تتأكل قلبها ، او يغذي ذلك
الشك الضعيف ، الذي اخذت تحنو عليه ، وتعهده بالناية
كل يوم بعد يوم ، لتتمكن من ارسال صرختها الداوية

حين تقف مع عمر وجهاً لوجه ، وتبسط له الميزان وقد
ثقلت كفة الشر فيه ، ام انها صابرت الايام على مضض وقد
خاب املها ، فترشت لتفجأوه بالدموع الغزار ، التي تعرف
انه لا يقوى على مغالبتها ، ومن ذا الذي يقوى على دفع
الدمعة وهي على صغر جرمها تسع ذنوب الارض ، وتطهرها
تطهيراً .

وكان عمر ينتظر ان ياتيها جوابها ، وينتظر ان يرى
دموعها سالت على الخبر ، فخطت ما بين السطور اشياء اسمى
مما يخرج من شق القلم . وكان يعرف انه قسا عليها ، وانه
قد يكون اهانها ، ومن طبيعة المرأة ان تابى الاهانة ،
خصوصاً اذا اصابته موضع ضعف منها ، والمرأة ككل شخص
آخر ، احب شيء اليه معايبه ، ما زالت خافية على الناس
بل قد تكون سبب زهوه ، واليها مرد كبريائه ، فاذا
انكشف عنها الستر ، انكرها ، واشمأزت عينه من النظر اليها .
وطال عليه الانتظار فاقلقه ، واخذت الظنون تدب
الى رأسه والى قلبه ، واصبح حيران لا يدري أيذهب اليها
فيستغفرها عما فرط من الاساءة منه ، ام يحتال امرأ فيستقدمها
الى دمشق ؟

ام حسن

ام حسن امرأة سمراء اللون ، مديدة القامة ، بوجه
لا يوحى اليك شيئاً عند اول نظرة . لكن ذكاءها يخلع عليه
رونقاً فلا تنفر العين منه ، ولا تقف عليه ، فاذا اخذت
بالحديث ، رأيت في قلب عينيها لحظاً دقيقاً ورأيتها تسوق
اليك الكلام سوق عارف خبير ، مرن الاخذ والعطاء ، ومارش
البيع والشراء .

وكانت ام حسن تصيف في بعلبك كل عام ، وقد
حبب اليها الصيف ، ما وجدته في هذه المدينة ، من هواء
طيب ، وماء عذب ، ورخص في العيش وبساطة في الحياة .
وتقضي الصيف كما لو كانت في دمشق ، تنأبط طراحة لا تزيد
عن اليها ، وترتاد المرجة والنهر فتجالس الى ضفافه اصيل
كل يوم ، في حلقة من الصواحب انسن الى لطفها الشامي

وحديثها الناعم ، ولم يمض وقت طويل حتى عقدت الصداقات
بين ام حسن وصاحباتها ، وارتفعت الكلفة بينهما ، ففتحت
لها الابواب ، وصارت تدخل البيوت بين التأهيل والترحيب
في الصباح وفي المساء ، وحين تريد ، وكانت هند اشدهن
صدقة لها ، واعلقن بها ، وكثيراً ما كانت تهجر ام حسن
غرفتها الضيقة وتمضي اياماً وليالي بضيافة هند ، فاذا ما انقضى
الصيف ، وصيف ام حسن يمتد الى قلب الخريف ، وأبت
تريد السفر ، شجنت لها هند الشيء الكثير مما تخرجه بعلبك
موؤنة لبعض الشتاء ، وخصت الشيخ يوسف بهدية ، والشيخ
يوسف هو زوج ام حسن ، يأتي بعلبك مرتين ، اول الصيف
حين يحمل زوجه اليها ، وفي آخره ليرحل بها عنها ، ويمكث
في كل مرة اسبوعاً . وابو حسن هذا مشهور بالتقوى ، يأبى
الا ان ينقل امرأته يده ، من البيت الى المصيف ، ومن
المصيف الى البيت ، وعنده من مقتضى الدين ان لا تقطع
المرأة الطريق بين مدينة ومدينة في سيارة او في قطار لوحدها
وعيون الناس ترمقها ، كيف وهي امرأة شيخ . والشيخ
يحب امرأته ويغار عليها ، فيستأجر لها غرفة في بيت بسيط
طيب السكان ، لا يدخل اليه الرجال ، ولا تهب عليه

رائحتهم ، ويرى انه لا بأس عليها من عشرة النسوان ، فاذا
اطمأن الى هذا كله ، تركها في ذمة الله تستجيم كما تريد ،
وسافر على بركة الله والايمان يشرح صدره ، ليغيب عنها
شهور الصيف .

وقد تحلى الشيخ يوسف بالكثير من الصفات الممتازة
التي لم تتوفر لغيره من اقرانه ، فهو مشهور بالورع يغض
الطرف حياء اذا مر بامرأة ولو انها محجبة من الرأس الى
القدم ، وعصم لسانه فما سمع يتكلم عن احد بسوء . يحفظ
الحديث ، ويخلطه الى آي القرآن الكريم حين يستشهد ، ويحذق
قواعد علم النحو ، ويقرض الشعر ايضاً ، ويكتب وما يحسب
الشيخ انه يكتب كما يكتب غيره ، ولكنه يكتب للمحبة
فيؤلف بين القلوب ويرفع الشحناء والبغضاء منها ، وبزوج
الاضداد ، وما عرف عن الشيخ انه خط حرفاً بقلم لضر
وهو الى جانب هذا كله ، ينظر في الطالع ، ويكشف عن
السعد والنحس ، وينبش عن الحبيئة والسرقة ، وله زبائن
كثير يترادون بيته كل يوم جلهم نساء بل كلهن ، والشيخ
غير كلف بالدنيا وغير طامع بمتاعها الزائل ، فاجره على قدر
المشقة وفي سبيل مرضاة الله ، فهو صغير لصغائر الامور

وكبير للكبراء ، وليس له من الدنيا الا بيت وبستان
اشترهما مما فتح الله عليه من اقدار الناس ، يخط سطورها كما
يريد ، فيبدل السعد بالنحس ، ويقلب الشر الى خير ، يسكن
البيت هو وزوجته وابنه ، ويأكل من الهدايا ، واما ثمر
البستان وما تنبت الارض فيبيعه ، ويكتنز الدرهم فوق الدرهم
ليشتري اذا هبت الريح على ما يهوى بستان جارتها العجوز
وقد اشتهاه منذ اول نظرة ، فيدخله في ملكه . ويكر الى
صلاة الصبح وقد شمر عن ساعدين مفتولين ، وكشف عن
رأس انزع ، يستر اعلاه قميص وادناه سروال من الخام ، في
احدى يديه ابريق ، ويده الاخرى على خचितه ، يحك بها
ويسبح ربه بصوت عال يسمعه الجيران ، والشهرة تنفع حتى
في العبادة ، فاذا فرغ من تعبدته ، وجلس على دكته في
المنظرة ، رأيت الشيء الكثير من الوقار بين جبة ، وعمة
وسبحة .

وقد فطن الشيخ بذكائه الى مستقبل ابنه ، فنشأه على
غير مثاله ، وهو لا يجب ان يكون شيخاً ، وحجب عنه
اسرار صنعتها ما قدر ، وارسله الى المدرسة الحديثة ، وهو
طامع ان يرى منه يوماً طبيباً او مهندساً او محامياً ، ويفضل

الشيخ المحاماة على غيرها ، لانها تتطلب لسانا ذربا يجمع
 البيان الى الفصاحة ، ويكون الولد قد ورث شيئا منها عن
 ابيه ، فتظهر صفاته فيه على وجه اتم ، وفي هذا حياة جديدة
 للاب وتغذية لعنجهيته ، ويكون الولد سر ابيه . والمحامي
 من جهة اخرى كثير الالتصاق الى الشعب ، يعيش بين
 مصالحه ومشاكله ، وقد اصبح المستقبل في ايدي الشعب لا
 في ايدي زعمائه . والشيخ يسوف بانفه رائحة الديموقراطية
 وهو مؤمن ان موجتها جارفة ، بل ان ايمانه بها اشد من ايمانه
 بنسبه الذي طالما دل به وهو يرتفع الى آدم بسلسلة من الاباء
 شريفة . والشيخ وان يكن قد فصل بينه وبين ابنه بحجاب
 فاصبحا يعيشان قريين بعيدين ، ويعرف الولد عن مدرسته
 ومعلمه اكثر مما يعرف عن بيته وابيه ، الا انه اشرك ام حسن
 في كل شيء ، فكانت داعيته التي لا تعرف هواة ولا كلاً
 تبذل في سبيله ما اوتيت من دهاء ومكر ، وتسوق الى
 غرضها حتى صداقتها ، وقد حفظ الشيخ لزوجته مكانتها
 فبادلها السر بالسر ، ولكنها بئر عميقة خرساء ، فاذا لم يكن
 من خوف على اسرار الزبائن ان تباح ، فان الخوف كله ان
 تبقى تلك الاسرار بين شفتي المرأة ، تانظها الى الوجود فضيحة

وعاراً ودماء حين تريد .

ذلكم هو الشيخ يوسف ، مثال التقوى الحي ، وتلك
هي زوجته ام حسن كما خطرت ببال عمرو وهو يحاول الاحتيال
على هند . ولم ير عمر بداً من الالتجاء اليها ، والمرأة اقدر من
الرجل على حل عقدة المرأة وعلى تفهمها . وكان عيد الاضحى
بالباب ، ومن العيد وسيلة ، فجمع اطراف نفسه وتحزم
بشجاعته كأنه يركب خطراً ، وذهب اليها وهو يود ان
لا يجد الشيخ في البيت ، ليتسنى له ان يجتمع الى صديقة
هند في خلوة ، ويدور على الحديث بلسانه الناشف من الحياء
كما يريد .

صاحبة • لفظة

الساعة الثانية عشرة واليوم يوم جمعه ، ولعل الشيخ يوسف يؤدي صلاته في الجامع ، ويستمع الى الخطبة ، فاذا عاد الى البيت عاد متأخراً . واخذ عمر يطرق الباب بالحلقة طرقة ضعيفاً متردداً ، ويلفق سبباً لزيارته اذا وقع على الشيخ ولم يقع على ام حسن ، وكان يسترق السمع باذن مرهفة ، وينكاد يرجع على عقبه لو لم تعلق يده الى حلقة الباب وتشد عليها ، الى ان اسعفه طرق قبقاب على البلاط كان يقترب منه ، فلما صاقب الباب تلاشى وراءه ، وارتفع مكانه صوت امرأة شامي بـ (مين) .

استقر قلب عمر الخافق على الصوت الناعم ، فهندم ياقته وتنحنح يستعد للجواب ، واذا بالباب يشق ، وتطل عين من خصاصه .

اوه عمر افندي !

نعم ، يا سيدتي عمر ، وهل يؤذن لي بالدخول ؟
مية اهلا وسهلا . تفضل ورح الى القاعة رأساً ، وانا
ارد علي الباب ، لا تتطلع ، بعد نفقة من الوقت يرجع الشيخ .
ولم يطل عليه الانتظار حتى جاءت ام حسن بالقهوة
وعليها ملاءتها السوداء تحجبها من قة رأسها الى موضع الحجل
منها ، كأنها مهيأة للخروج من البيت ، فما يظهر منها سوى
وجهها .

قال عمر : كنت اود ان ارى الشيخ ، واستفتيه في
قضية عرضت لي والتبس علي حكمها الشرعي ، فما لنا ولها
اذا لم يكن موجوداً ، هل ستقضين صيفك عندنا هذه السنة ؟
— من كل بد ، وانت تعرف اني احب بعلبك واهليها
وكل شيء فيها ، ومشتاقة الى هند ، قلبي يغلي عليها .
قالت هذا وتفرست في وجه عمر لترى تأثيرها فيه .
فقال لها :

— لم لا تدعينها الى العيد فيبرد قلبك ؟
قالت : وقلب ثان ؟ وضج الضحك في فمها وفي عينيها ؟
ضحك خبيث .

قال عمر : يالك من سخية ، لقد طال غياب الشيخ
واني مشغول ، فالى العيد .

ولما صار الى الشارع التفت الى الوراء ، فتخايل له وجه
ام حسن على خصاص الباب ، مكشراً عن فم يطفح الحبث
على شديقه ، بعينين كأنهما تقدحان شرراً ، فقال في نفسه :
يا لها من شيطانة ! وشر سروراً يخلجه الخوف .

جاء العيد ، فقام عمر بزيارة للشيخ يوسف ، عليه يقف
على خبر من هند ، وكان منزل الشيخ يكتظ بالمعيدين ،
فلم تتح له فرصة ليرى ام حسن ، وطال به المكث فهم
بالانصراف ونفسه مترعة بالفشل ، لكن المرأة التي كانت
تقرب القادمين والذاهبين من وراء الزجاج لم تترك الفرصة
تفوتها ، فشقت درف النافذة ، وازاحت ستارنها وهو على
عتبة الباب ، فشاهد هنداً تبسم له . وخطر الموقف فلم يشأ
الرجوع الى مجلس الشيخ لئلا تتخالج احداً ريبة فيه ، فواصل
سيره لا يدري كيف يدعس الارض . وكان البيت منزوياً
بعطفة زقاق ضيق ، يصله بالجادة ويبعده عنها . وكان
الزقاق فارغاً من الناس ، فوقف هنيهة بين جاذب العودة وبين
دافع السير ، وفتح باب الشيخ وهو بعد في حيرته ، واقبلت

الخادمة تسعى اليه ، وهي ولد لا تتجاوز الثامنة من العمر .
قالت : « تقول لك معلمتي ، شرف في الليل ، وهذا مفتاحك »
ولم يتردد في اخذ المفتاح من الولد لئلا يستريب ، وقد لا
يستريب الولد ولكن سذاجته اشد خطراً من رشده احيانا
ثم نفح الولد بشيء من كيسه وانصرف وهو يحمل هذا اللغز
الذي عمي عليه حين بدهه . واخيراً لا بد ان يكون هذا
المفتاح لباب بيت الشيخ ، وانها الحيلة شيطانية ، وخدمة جلييلة
تؤديها له ام حسن ، ومن اجدر منها بتحدي الابلاسة ، اذن
فلينتظر الليل .

واقبل الليل وعمر يتنقل بين حانة ومطعم ومقهى ، ويده
على جيبه يتحسس المفتاح وكأنه يضغط على موضع ألم منه
او يحمل جريمة لا يعرف اين يرمي بها ، ولو انه سئل من اين
اتاه ، لكان من الصعب عليه ان يجيب عنه ، ومن العجب
انه كان يتوقع ان يسأله الناس الى اين يذهب في مثل تلك
الساعة ، ولم يسهر الى الهزيع الثاني من الليل على غير عادته ؟
الى غير ذلك من الاوهام التي كانت تجول في رأسه ، وهو
يجتاز الطريق الى بيت الشيخ ، ولكن واحداً لم يفعل ،
ولا شك باننا نعيش في انفسنا اكثر مما نعيش في عيون الناس

وفي رؤوسهم ، وبصور يختلف بعضها عن البعض الآخر كل
الاختلاف .

واخذ عمر يتفحص الباب بيده لعله يعثر على القفل
وهو شديد الحذر ان لا يأتي بحركة توقظ الجيران ، وقد
يكونون راقبين قدومه ، او قد يكون الشيخ نفسه كامناً
له وراء الباب ، حتى اذا اطل بوجهه الخائف هجم عليه
واخذ بتلابيبه ، وساقه ذليلاً خانعاً ، وشهراً ، ويا للعار ، ولكنه
كان يغامر لاجل امرأة ، وكان دمه يغلي في شرايينه ، فلم
ينكص حتى كان له ما يريد ، وادخل المفتاح في القفل
واداره ، فصر صريراً خفيفاً تخيل لعمر ان الدنيا تدوي فيه
فانصت كأن طائر الموت يرف بجناحه فلم يسمع شيئاً .
وتدافع الباب تحت يده فدخل الدار ، واغلقه عليه ، واخذ
يسترق الخطى ماشياً على رؤوس اقدامه ، فاجتاز صحن
الدار ، وترقى في السلم درجاته الخمس حتى جاء الايوان فالصق
جسمه الى عاموده ، واجال في الابواب نظراً ، فوجد باب
القاعة قد شق احد مصراعيه عن الآخر ، فولوجها .

النفاسة الضميرة

لم يكذب عمر حدسه ، فقد جعلت ام حسن من
القاعة حجرة نوم لهند ، و جهزت لها فراشها في الزاوية الغربية
لئلا يرى من الباب المطل على الايوان ، او من الباب النافذ
الى غرفة مجاورة ، ووضعت لها بالقرب منها شمعداناً ، ضاءت
شعلته حتى ما تكاد تبين وقد تكون ارادت ان تقتصد
في نور الكهرباء ، وقد تكون ارادت شيئاً غير هذا
ومهما تكن ارادتها خافية ، فان فكرة الشمعدان جميلة
فاذا اردت ضاءت شعلته ، واذا شئت كبرتها ، وتنقله من
مكان الى آخر ، فتضعه حيث تريد له ان يكون ، ثم ان
شعلته النائية تلقي على الاشياء نوراً تتراقص الاخيلة عند
اهتزازة ، فيخلق في المكان جوائنطوف به مواكب الاحلام .
وكانت هند تحلم في يقظتها فما احست وجود عمر في

الغرفة حتى هبت اليه تعانقه ، وهي في خيلع حريري وشاء .
 وانتحر العتب حسداً بين الضم والقبل .
 ولم تنس ام حسن ان تفكه الحبيبين فتركت على
 صينية شيئاً من الموز ، والليمون وتفاحة واحدة . واراد عمر
 ان يداعب هنداً فقال لها : ان صديقتك سخيت علينا بالموز
 والليمون وبجئت بالتفاح ، واما الموز فقد اطعمنا منه الشيء
 الكثير وفاتتبه الشهية . واما التفاحة ، فاني طامع بها لنفسي
 ولك ما تشائين من بعد ، وقديماً اوصى الحكماء بالتفاح .
 قالت : وحكماء اليوم ايضاً ، واخذت التفاحة بيدها ، وهذه
 التفاحة من ثمر الدار ، بل آخر ثمرة في بستان الشيخ ، وترعرعت
 وحيدة لا اخت لها ، تستحم عند الفجر في الطل كل يوم
 وتنشف بخيوط النور حين تطلع ذكاء ، والشيخ يتوفر على
 العناية بها ، حتى اذا رآها طابت ، للاكل قطفها ، وكان ذلك
 يوم امس وبالغ الشيخ باكرامه اياي فقدمها لي ، وسوف
 لا اطعمك منها . قالت هذا باسمة وادنت التفاحة من فمها
 وجكرت تغاضبه ، فهم باغتصابها فعضت عليها باسنانها ،
 فما تلقفها بيده حتى كانت انتزعت لقمتها ، وراحت تملك
 وتزرد وتضحك . فقال لها : اين اعرض ؟ قالت : حيث

تشاء . فقال : موضع اسنانك . وعض وراح يعضغ هو
الآخر . ثم قال : كم هي لذیذة هذه التفاحة ، فقالت :
لقد كبرت اللقمة واخاف عليك ان تعص . قال بل تخافين
عليها ، هاقي لقمة ثانية مقشرة ، قالت : لا ، لقد اوصاني
الشيخ بالقشر ، وقال ان كتبه القديمة مليئة بالكلام عن
منافعه ، ثم انه رقاها لي ، ورقية الشيخ تشفي الالوجاع ،
وتحجب العين ، ولها منافع اخرى ، وحذار ان تهزأ ببركة
الشيخ او تسخر من علمه .

واكلا تفاحا غير مقشور .

واخذت يد الصبح تنضو عن الاشياء اثوابها السوداء ،
وغور نجم السماء ، واستيقظت الحركة في السابلة ، وهب
عمر الى ثيابه يلبسها وقال لهند : لقد غمرتني ام حسن بكرمها
واحب ان ارد لها هذه اليد التي صنعتها عندي ، قالت : لا
تعجل ، انها صديقة لي ودود ، واعرف من امرها مثل ما
تعرف مني ، تحب ابن عمها مختاراً ، وهو نجار ، فاذا ما عازها
مسمار دعتة اليها .

— فيضربه انى تشاء ؟

— لا اريدك على هذا المجنون .

قال عمر : يا لصدقات النساء ما اعمقها . واحسب ان
في الصداقة العميقة خطراً ، اما انا فلا اعرف من اصدقائي
الا مظاهرهم ، وما حاولت مرة قط ان اكشف عن دخائل
احدهم ، واحسب ان صداقة من هذا النوع تدوم اكثر من
غيرها ، قالت : لا عليك ان تفزع فودعها وتسلك .

وكانت ام حسن تتفقد هنداً المرة بعد المرة فتجدها
نائمة فلا توقظها ، وتجدها واقعة ما فيها من اثر غريب ، سوى
بقية انين لاهث ، كانت هي وحدها تحسه وتكاد تسمعه .
ولما ضحا النهار دخلت على هند فالفحتها خائفة وقد افاق عنها
النعاس ، فاكبت عليها تقبلها ، وتعانقتا لحظة ثم سألتها : ام
حسن بشيء من اللهفة : هل اكل التفاحة ؟ اجابت : لقد
اكلناها معاً ، والحجاب ؟ وضعته في طربوشه بين الجلد والقص
بعد ان بسطت الورقة جيداً ، وجعلتها للوراء فيه واحكمتها
وهي صغيرة الحجم تضيق عن حسه .

— حسناً فعلت ، لقد كتب الشيخ على التفاحة اعظم

باب في المحبة ، وسترين فعلها فيه ، حين تصل الى قلبه .

— لقد رأيته ولما اتصل .

واما الحجاب فسيخاط عقله في حبك حتى يمن .

— لهذا وضعته فوق رأسه ، وليكبس عليه ١٠

وراحت امرأة الشيخ تفتح النوافذ للهواء لان جو
الغرفة المغوم بالحب يثير اعصابها ، وطوت الفراش وارجعته
الى طاق في غرفة اخرى ، واعادت القاعة الى حالها الاول .
هكذا تصرمت البارحة من سلسلة العمر ، وامتحت
معالمها ، لكنها عاشت في ذاكرات ثلاث ، بابراد مفوفة
موشاة ، وتعيش ما يشاء لها الخيال .

لم يكن عمر ، على موعد العودة الى بيت الشيخ ، غير
ان الحب لا يعرف موعداً ، ولا يقف عند حد ، بل يرى
اجزاء الزمان وفقاً عليه مهما دقت ، يتصرف بها ابتغاء
اهوائه ومروضاة لذاته . فما كادت الشمس تتكبد السماء
حتى خف الى ثيابه يلبسها ، نازعا عنه كسل النعاس ، وشعر
بالجوع يقرصه ، فقعد الى المائدة يتناول طعامه بشره ، قد
امتلائت معدته ، لكنه ما يزال يحس فراغاً لا يعرف اين
هو منه ، كأن البارحة اخذت منه الشيء الكثير ، ولم تعطه
شيئاً ، وهو بحاجة بعد الى ما يسد به هذا الفراغ فاين
يجده ؟

مسكين عمر ! هل يطلب مستجيلاً ، ام ان كل

دوائه في قطعة من (البفتيك) الدامية ؟ وفي قليل من
الفاكهة والحلوى ؟

لئن كان في التخممة شفاء المحبين ، فيا سحق الحب ،
ويا هون من يهوى !

انذهبي يا امرأة

كانت الشمس قد زالت عن كبد القبة ، حين طرق
عمر باب الشيخ ففتح له ، ذهب تواء الى القاعة ، ولشد ما
كانت دهشته حين رأى هنالك فارساً ، قد جلس الى الشيخ
وامراته وهند ، وهم يشربون القهوة ، وفارس يتنادر عليهم
بجديث عن مغامراته ، وهو ممن اشتهروا بشجاعتهم ، وركوبهم
الخيول والليل ، في سبيل القتل والسلب ، وفي سبيل الحب ،
حتى قيل ان صداقة قوية تربطه بهند ، الى ابعد حدود
الصداقة ، وشتها الالسن النامة ، وصبغتها باللون الذي تريده
القصص ، التي تدور على الشفاه همساً في المجالس .

وكانت ام حسن وهند في ملائمتها ، كأنهما قادمتان
من زيارة ، او تستعدان لها . ولم يمكث فارس طويلاً فاستأذن
وانصرف ، وراح الشيخ يشيعه الى الباب ولم يرجع ،

ودخلت ام حسن الحجرة الثانية ولم تعد ، وظل عمر وهند
وحدهما .

وامحت كل صور الحياة من عيني عمر ، لتقوم مقامها
صورة فارس ، فما الذي جاء به الى دمشق ، ثم الى بيت
الشيخ ؟ واخذ يمزغ هذه الفكرة ويحاول ان يبتلعها فتقف
شجى في حلقه فيلفظها اشد مرارة واكثر المأ . لا ، ليس
للدنيا ان تطلع عليه بسبب مبرر ، وهند ! هذه المرأة التي
تنظر اليه بعينين هادئتين ، اليست شريكته في الائم ؟
اخذ الدم يغلي في عروقه ، فهب عن مقعده وشرع يمشى
بخطى راجفة ، يكاد لو اصابته نفخة ان تقذف به الى الارض
ثم اسرع خطواته وقد احس جسمه يمتلى ، واعصابه تنفج
صار كتلة تنفجر لو مسها الهواء ، بل تكاد تنفجر على نفسها
واحست المرأة الشر ، فطالعتها كبرياؤها ، واخذت تجمع
نفسها ، وتلم قواها ، وتحجز دمعها ، في آن واحد ، وقالت
له : ما بك ؟ رأيت سحتك قد تغيرت مذ دخلت علينا
ولم ار سبباً يحفزك ؟ فالتقى عليها نظرة كلها احتقار ، وقال :
— وفارس ، ما الذي يصنع هنا في دمشق ، وفي هذا
البيت ، والى جانبك ، او تظنيتي ابله الى هذا الحد ؟ الم

يكفك ان دنست حرماً نسجت بردته من شغاف قلبي ، حتى
حملت عشيقك الاول الى نزهة على اطلال حيي ؟ وكان
هذا الزيفان لم يشبع نهمك ، فرحت تفقسين في انفي دنسك
لاحمل رائحته الكريهة الى الابد . اغربي عني يا امرأة ! ان
الاربعين سنة تجتمع كلها في وجهك الان ، فينهزم امامها
سحر جمالك ، وتظهر غصونك وتبدو بشاعتك . لقد مات
الماضي فما عدت ارى عليك رائداً من طيوفه ، وافقر روضك
فلن يرف جناحي بمغناه بعد اليوم . نحن ابناء الساعة ، بل
ابناء الغد ، ولكن لا ، انت لا تكونين للغد الا فريسة
وفريسة هزيلة تتعثر بها اللذائذ الهاربة ، ولا تشبع واحدة
منها ، فالخفي بصاحبك ، ذاك الذي كان ينتظرك وتنتظرينه .
لقد اردت ان تكوني عاشقة فلم تقو روحك على السمو في
اجواء الحب ، واحتمل فضيلته ، فصرت عاهراً تتسكع على
مآدب اللذات وتقتات من فتاتها القدر ، وشان بين الحب
والفجور ، فلنفترق .

كان عمر ينفجر بغضبه والمرأة لا تجيب ، فيزداد سعيه
حتى اذا خيل اليه انه يسمع صدى تحطم كلماته على سكوتها
تجمعت الالهانة زبداء على شذقيه فرمى بها وجه المرأة ، وتركها

في دھول وحيرة .

دنقت الشمس ، فانوارها عليلة صفراء تزيد في كآبة
المساء ، وللا مسية هينمة ، تدعو الافئدة فتززع اليها من
حنايا الضلوع ، تشهد موكب الشفق الراحل ، وتفرق في
غمامة السر الذي يغمر الكون بعد قليل . وكان عمر يشعر
كأنه قطعة من المساء ، انفصلت عنه ولا تزال مربوطة اليه
فيكاد يتلاشى على جرسه الحفي ، ويدوب في كآبته ، ويدلف
معه الى العدم ، وكان بين الفينة والفينة ، يخنق نفسه بالخرقة
ليمنع عليها ان تفيض مع انفاسه من فيه ، يريد ان يبسط لها
في الاجل ، دقائق معدودة ، والعتمة تنشر اكفانها .

في هذه اللحظة استيقظت هند فيه ، فاوحت اليه كره
النساء ، فكان يمر بهن شائحا بوجهه عنهن ، وكيف يهرب
منهن ، وهن في كل مكان منه في رأسه ، وفي قلبه ، كره ام احب
والبغض والحب طرفان متصلان الى منبع واحد ، او جزء من
كل ، وقد يكون الاول بدء الثاني ، وما علينا ان لا يكون
ودخل عمر ، الى حانة في منعطف من ساحة المرحه ، فيها
ابنة سمراء حلوة الملامح ، تساعد اباه على عمله ، وهي في
الربيع الخامس عشر ، في محاسن لم تنشق عنها اكمامها ، ولم

يفج عيرها • اترعت له الكأس ببسمة ومالت عنه الى ابنيها
تضحك له ، فيضحك لها ، بعينين مزهوتين ، تفيضان حباً
وحناناً • ان سلوى تقوم بواجبها ، غافية عن الحياة ، غافلة
عن نفسها ، تنمو وتحلو تحت عيني ابنيها ، وتغبط وتسعد في
رضوانه ، لا تشبه هنداً في شئ ، برغم تماثل الثياب ، وتجابوب
العين والانف والفم ، اذن ، فليس للبنات في فجاجتها ان
تراحم المرأة في نفسه •

ولكن ما الذي يجعل المرأة والمرأة تختلفان كل هذا
الاختلاف ؟ فضول غريب اخذ يراوغه فراح يسعى وراءه
يريد ان يغذي به بغضه اللجوج ، يجب عليه ان ينتقم من
المرأة التي نكشت عهده وخانت وده ، بامرأة مثلاً ، والنسوان سواء
صور من لحم ودم ، قبيحة ان هزلت ، قبيحة ان سمت
واستوقف اول عربية مرت ، وكانت عتيقة مفككة
الاوصال ، يجرها حصانان ، ازرق ، وكيت ، وكلاهما هزيل
ظالع يتحامل على الآخر ، واصعدت العربية في الشارع تترنج
على بلاطه الاسود ، ولها قعقة وجرجرة تصم الاذان ، حتى
اذا جاءت السنانية ، التفت السائق ، فرأى عمر لا يشير اليه
بشيء ، فادرك قصده ، ووجهها على عادته ، الى السوق •

سوق المومس

إذا جاء الليل ، بطل البيع والشراء في اسواق المدينة
وانصرف الباعة والتجار كل الى شأنه الخاص ، وشؤون
الناس تختلف باختلاف الناس ، فتجد المقاهي امتلأت
بروادها ، والحانات غصت بزبائنهما والبيوت أنست باصحابها
وترى فيما ترى سوق المومس ، قد حفل بالناس من جميع
الاجناس ، كأنما هو الموسم وكأن لكل ليل حصداً جديداً .
فتحت ابواب المواخير ، وتألفت فيها الانوار ونشرت
السلع ، واي سلع ! مخلوقات ، ساكنة متحركة ، عابثة عابسة
فرحة متألمة ، وهي في كل حالاتها لا بد لها ان تعرض عليك
بضاعته ، بضاعة خرساء ، من لحم ودم ، لا تثير فيك نزوة
ولا تحرك شهوة ، ومع ذلك ، فانت تقف على ابواب الحوانيت
كما يقف الناس في رجفة النور الاحمر ، وتنكر على نفسك

موقفك ، ولكنك لا تبرحه الا لتنتقل الى ماخور آخر تقف
ببابه ، وما عليك ، وانت متفرج ، وغريب لا يعرفك احد
تتعل بهذا الخلق المحشور لا تربطك اليه صلة ولا تمت بنسب
لولا ان طريقاً واحدة جمعتكم الى اهدافكم المتباينة بذاتها ،
المتجمعة في هدف واحد تهوون اليه من عالم البهيمية ومن عالم
النفس على حد سواء .

ويدعو (الفونوغراف) للرقص ، فتتعقد الايدي على
الخصور ، وتومر الاردا ف تحت الغلالات ، ويرقص النور .
ولائم اعراس للعبر قد بسطت ، ويهتف هاتف الذات :
العيش يا جوعان ! فتزف الى الدعوة وقد تحرك فيك الجوع
فيهيب بك التعفف فتحسبك شعبان وما انت بشعبان .
وما هي الا لحظة حتى يقبل الزبائن ، فتراهم راقصين هنا
ومنتظرين ، ومتفرجين هناك ، الصقوا وجوههم الى زجاج النوافذ
وحدقوا باعينهم .

ويتغير الجو ، ويتقلب من ضعيف ممتن الى قوي محبب
وتحس الحدود ارتفعت بين الفضيلة والرذيلة ، وتعرت الحياة
من تقاليد الخانقة واستوى البشر في اشتراك طبعية ،
فضائلها ومعاييرها بلون واحد . وانت شيء هائم في هذه

الدنيا ، دنيا السوق تسيطر عليك بنواميسها ، وتسوقك
اقدارها ، قد فئت شخصيتك في شخصيتها ، وذابت الوانك
في الوانها ، فوردت موردها ونمت في مضاجعها .

*

ما اسمك ؟ — سألها عمر وقد قذف بطيريه شه الى الديوان
الغارق في الوسائد ، واقتعد حافة السرير .
نيننا . اجابته وهي تهم بخلع غلاليتها .
— اسم جميل ، ولكن ابق على هذا الثوب يا نيننا !
وهاتي اسقينا . الان خمر ، وانا عطشان ، لا احب ان ارى
كأسى فارغة ، ولا اطيع ان اراها مترعة .
فأشربي نيننا ! اعطنيها . خذي ، هاتي .

*

هل اتى عليك هذا الاسراء الذي لم تحس له جلبة ، ولم
تتغير عليك فيه المشاهد ، حتى اذا اخذ النوم يتسلل من
جفنيك ، طافت عليها روى اشتبهت عليك ، فرحت تتحسس
جوانب فراشك ، فاذا هي اشياء غير ما الفت ، فتعود تدور
بعينيك على ماحولك ، فترى الاشياء تخرج من ظلالها وتأخذ
الوانها فتعرف انك في عالم جديد لا عهد لك به من قبل ،

فتضطرب .

هذا ما اتى على عمر في صباحه ، ولم ينتبه الى امره الا حين رأى فوق الديوان مخلوقة جمعت بعضها في بعضها ونامت كأنها وسادة من وسائده .

هو اذن في بيت دعارة ، فما الذي جاء به الى هذا الحي الغارق في سكونه ونومه كهذه المخلوقة التي على قيد خطوة منه ، ولم يهدأ اهل هذا العالم ويأوون الى مضاجعهم حين تستيقظ المدينة باجمعها وراء جدرانها التي لا يتجاوز عرضها الشبر الواحد ؟

ألأن هذه المخلوقات المنبوذة لا تقوى على الحياة في النور ، وعلى رؤية عارها معروضاً على الانظار تحقد اليه وتزور ، فتؤثر ان تختفي به . ام لان الناس الولعين بالظهور باثواب الفضيلة تضيق عليهم انفسهم ، لا يجسرون على خلع اثوابهم تلك الا في جنح الظلام ؟ فيختلط هذان العالمان في الليل ، يلقم كل منهما الآخر ويحذب عليه ، ويتجافيان نهاراً على غير كره وضعيفة .

ها ان النهار قد ضحا وعمر في حيرته ، يرمي بنظره تارة الى المرأة وتارة الى نفسه ويتحسس جسمه ، ثم يقف الى المرأة

فيرى وجهاً اشعث كده الجهد ، فيرجع الى الامس يوغل في
دقائقه واجزائه ، ويتتبع خطواته فيه ، عليه يذكر كيف
بدأ برحلته ، ويدرك اين تنتهي به ، وانه لفي ذلك والشمس
تجبو الى صدر القبة ، ويكاد النبار ان ينتصف ، والمرأة
نائمة وقد نشرت طياتها الان ، فبان فخذهما ، واندلق ثديها
فرأى عمر شيئين منهوبين لا حسن فيهما ولا رونق ، عصرتهمما
اللذات ، ومصهما الفجر فعادا حشالة تنقزز منها النفس ، فلا
ماء ، ولا حياة ، ولا رفق .

اشاح بوجهه عن المرأة واصطنع حركة توقظها ، ونظر
في المرأة فراها تمسح باصابعها غشاوة النوم عن عينيها وتتناهض
كسلى ، وهي تقول له بصوت لا دعارة فيه ولا غنج ولا
كذب ، وقد يكون فيه شيء من القلق لم يحسه عمر اول
وهلة « كيف انت ؟ اما سكرة انكليزية كانت ، انطفيت
وانت تشرب ، لكن ما هي من عندي ، مؤسسة من قبل
عذبتي حتى نزعتم ثيابك ونومتك ، ثم صرت تشت وفزعتي »
كانت تتكلم وعمر يأس رويداً رويداً بالنظر الى المرأة
التي عنيت به ، وما وصلت من كلامها الى هذا الحد حتى
احس ان شيئاً منه ، وقد يكون سره الذي يريد الاحتفاظ

به لنفسه ، بين شفيتها اليابستين وقد تلفظه بلا تهيّب كالقشرة
الهيّنة ، فقطع عليها الكلام بضحكة ارسلها عالية وقال لها :
— والان ما اسمك ؟
— نينا .

— نينا ، نينا ... اسمع دوي هذا الاسم في اعماق
ذاكرتي فأين عرفته ؟ لعل ذلك امس ، فما ابعد الامس
بل ما اقربه وما اقساه ، لقد كنت فظيعةً يا امسي ! وتعود
الي الان كما كنت لشعلاً نفسي بالالام المبرحة ، لا . نينا !
لقد ازعجتك الليلة بلا ريب ، وطردتك من فراشك ، وربما
اسمعتك كل ما تحمل نفسي الحاقدة من سباب وشنيمة للمرأة
ولوئث هذا الجو الذي لم يعرف الا اللذة العارية باقذار الحياة
المقنعة ، وارك لم تغضبي ، فانا مديون لك بالشئ الكثير
ولهذه الحجرة التي جلجلت آلامي فيها ، فحنت عليها . والان
ابن طربوشي ؟

— هذا هو ، وارى فيه ورقة مطوية .
اخذ الورقة بغير اهتمام ونشرها فاذا فيها :
« اللهم يا من الفت بين النار والماء ، وسمكت بلا عمد
السماء ، وجعلت من الجمال فتنة للناس ، واغريت بهم الوسواس

ألف بين قلبي عبدك (ع م ر ه ن د) وقهما العذاب ، يوم
الحساب ، آمين » .

وفي ادنى هذا رسم دائرة وشمس ونجم وافعى وخطوط
كالتى يصنعها المفايل باصبعه فوق صفحة الرمل .

وخطرت ببال عمر تفاحة الشيخ وتمثلت له هند تعضها
فيعضها ، فقال بصوت سمعته نينا وهو يضغط على يدها
مودعاً :

— مسكينة .

وقالت له وهو على عتبة الباب : نسيت ان تذكر
لي اسمك .

فالتفت اليها بانما وهم ان ينتحل اسما لغيره ، لكنه
رجع الى نفسه وقال جاداً : عمر ، ومضى .

اخذت نينا تردد هذا الاسم بين شفهيها ، وقالت : هل
احس عمر شقائي حين قال لي : مسكينة ، مسكينة ؟ ان
لهذه الكلمة دويأ في اذني كدوي الصفع ، لكن فيها شيئاً من
العطف نحن اكثر الناس حاجة اليه ، نحن اللواتي نبذنا المجتمع وسمانا
ساقطات ، لقد جار علينا المجتمع وانصفنا الفرد ، فنحن بحق
مسكينات ليت بؤس هذا الفتى يحتدم ويقذفه الى هنامرة اخرى

فاسمع آلامه تجلجل فوق هذا الفراش الذي لم يعرف الا
عريدة اللذات وانتظر كمة موسية تتساقط من فيه
فتشربها نفسي كما تشرب الارض الجافة رذاذ الغيث
ومضى عمر الى بيت الشيخ لعله يرى هنداً ويستغفرها
عما فرط منه ، وهو يردد في نفسه : مسكينة ! انها ما تزال
تجنني ، وتستعين علي بالرقى والتعاويذ ، لقد ظلمتها حين
اتهمتها بالخيانة ، هند ! هند ، عفوك ! لن اعود الى تمثيل تلك
المأساة ابداً .

وطرق الباب ففتحته الخادمة الصغيرة ، التي اعطته
مفتاح البيت بالامس . ولما وقع نظرها عليه قالت له : انتظر
لك مكتوب . وراحت تركض ، فكان يصغي الى ضرب
قبعائها على البلاط كأنه يقع في فؤاده فيتهافت تحته ، وعادت
تدفع اليه الكتاب قائلة : سافروا . واغلقت الباب بوجهه .
فاوجس شراً ، وفضه متردداً ، واخذ يقرأ :
عمر !

لقد عملت ما بوسعي لاحتفظ بك ، حتى اني لجأت الى
السحر ، ورصدت الطوالع ، وحبست على الابالسة ، فابيت
علي ، واذا كنت تريد الانصراف عني الى عشيقاتك ، فكان

عليك ان تلج الى ذلك غير الباب الذي ولجت . لقد سلبت
مني بقية من كبرياء واهتني . وقد كنت اغفر لك لولا
انك كشفت بيدك القاسية عن وجهي فناعه . اصحيح ان
اربعين سنة تطل من مثاني وجهي ساخرة ؟ لا . لست اصدق
وهرعت الى المرأة التي لا تفارق مثبتتي ، المرأة التي قبل
ساعة من الفاجعة كنت اراه فيها ، فاعجب بجماله انا نفسي
واطرب لجدده . فرأيت المرأة ذاتها تكشف لي عن وجهه
عتيق برزت غضونه ، وجمال مهدم ، ما كان للطلاء برغم
طراوته ان يعيد اليه جدته . لقد كنت في غفوة عن هذا
امر به ولا اراه ، فلما نهبت في الشك تنبهت له ، فلان احس
الايام تمشي ، بل الساعات ، بل الدقائق ، واشهد اثار خطاها
الجبارة على هذا الوجه و كنت لا احسب للسنين حساباً ، فكل
دقيقة تأخذ معها مني شيئاً .

كانت لي علالة من امل اغالب بها الايام ، فحطمتها
حين حطمت لي قارورة الحب التي كنت اتطيب منها كل
يوم ، فاعيش في جو تنفخ روائحه العطرة ، فاحسب الدنيا
غيراً كلها .

اما ولم يبق في يدي شيء منك ، بل لم يبق لدى شيء

اعطيه كما كنت احس اني افعل من قبل يوم كنت احب وأحب
-- وما اشد تبذير الحب -- فساخذ بعد الان ولا اعطي
ولئن اعطي فالشيء القليل التافه ، شيئاً من الماضي لا يعرفه
عشاقى الجدد ، الذين سيكونون شباباً تنقصهم التجربة
فيجدون في كل موضع مني اثرأ يتخلج بفنون اللذة . نعم
ساختار عشاقى شباباً اشرفت بالحياة وجوههم وطفجت بالصحة
اجسادهم ، فاعيش عليهم ، كما تعيش النباتات الطفيلية على
الاغصان اليانعة ، امتص حياتهم ، واجدد بدمهم الحار دمي
البارد ، واستوقف شبابى الراحل برغم انفك وانف
الاربعين سنة .

عمر ! عمر !

لقد دفعتني الى الجريمة بيديك ، فليكن اثم جنائياتى

عليك

« هند »

ستر عمر رأسه بكفيه ليتقي لعنات المرأة التي احسها
تنهمر عليه كالأتى فتكاد تسحقه . ورأى العار يتبرج بين
سطور الكتاب ، والااثام تنزى في كلماته واللذات ، وتخاليلت
له هند ، فكاد يسمع قهقهة الفجر على صدرها ، تنفق الحياة
سفنأ طلباً للحياة ، واللعة على شفتيها لا تفارقهما . فاعتلجت

الالام في صدره ، وود لو ان الارض تغفر فاها فتبتلعها ، او
تقع السماء على رأسه فتدقه ، فيخلص من الآمه ، وكم كان
يريد ان يقبض على هذه الآلام بيد من حديد فينتزعها من
جنبه او من رأسه بل من حيث يحسها تتحرك وتجلجل ، فيمد
قبضته اليها ، ثم يعيدها اليه معقوفة الاصابع متشنجة كأنها
تقبض على الشيء الذي ارادته ، فينظر فيها فيراها فارغة فتمن
قواه وتخدر اليد الحديدية وتعود شيئاً مشلولاً لا يحس له
حركة ولا حياة كأنه ليس قطعة منه .

لقد دفع هنذا الى الجريمة بيديه وها هي آثامها تقع على
كتفيه الضعيفين فينوا باثقالها ، ثم هو لا يدري اين يرمى بحمله
وكيف يتخلص من عبئه ، كأن الدنيا كلها طريق لا آخر
له ، وكأنه مضطر ان يمشي في هذه الطريق ، وان ينام فيها
وياً كل فيها لقمته ، وحمله على كتفه كل ما مشى خطوة
ازداد ثقلًا . وتلكه شعور غريب فراح يحس اعياء شديداً
بنفسه ، فقصر خطاه وتحامل على رجله والتقى عليهما كل ثقله
لكن رجلاه وهتا واخذتا تنقصان ، فعدا يشد من عزمه
ويجرهما جرأ ، ويلتفت الى ورائه فتتخايل له مساحبهما على
الارض فتروعه ، وينظر امامه فيرى معالم نينا تلوح فيمعن

في سيره .

ما الذي كان يحدو عمر الى هذه الزيارة يا ترى ؟ فهل
جاء الى هذا الحي الدنس ليعيش فيه بخطيئته ربحاً من الزمان
بين بشر لا يعرفون الا الخطيئة ، فيتشابه معهم في العيش فلا
ينكر احد عليه امره ، وينسى انه خاطيء فينسى آلامه ، ام
جاء يدعو هذه القلوب الكافرة الفاجرة الى التوبة والايمان
فيكفر عن سيئاته بحسنة يعملها ؟ ذلك ما لم يعرفه عمر نفسه .
دخل الى البيت فأدار نظراً سادراً بأهله ، ولما لم يقع
على ما يريد سئل عن نبينا ، ف قيل له انها في غرفتها
لا تستقبل احداً .

— قولوا لها اني . . . انا .

— ولكن من انت ؟ . . . وتعال قهقهات البنات
فقالت احداهن : منذ امس لم تستقبل زبوناً ، وقالت
الأخرى ، يمكن عاشقة ، وقالت الثالثة ، تابت ، وتشاغل عنه .
— وتوسل عمر الى الأم ان تبلغها ، ان الفتى الذي
كان عندها ليلة البارحة يريد ان يراها دقيقة واحدة ، قولي
لها ، عمر .

ذهبت الأم وبقي عمر ينتظر عودها على احر من الجمر

كان في موقف يلوى الرأس خجلاً ، وانظار البنات الساخرة
تحدق اليه من كل جانب ، يتغامزان عليه ويتضاحكن ، حتى
كاد يظن ان في ملبسه او في منظره شيئاً يثير الهزء والسخرية
ولو لم يكن شديد الثقة بنفسه ، قوى الايمان برسالته ، وقد
شعر في اعماقه ببدئها لنكص على عقبيه ولم ينتظر .
ورجعت الأم تقول له ، اذهب اليها فأنها بانتظارك .
ومشى عمر الى نينا فأرسلت البنات ضحكتهن خلفه
فدخل الغرفة واوصد عليهن الباب .

نينا

كانت نينا واقفة وفي يدها جريدة تقرأ فيها ، وقد لبست رداء من الحرير الساتان الاسود ، ولم تتزين ، ولم تتطر فبدا وجهها بلونه الطبيعي ، وقد غلبته غمامة من الهم ، اما عيناها فكانت لاصقتان الى حلم بعيد ، يغيمان اذا تقشع ويظلمتان اذا بقي لهما . وكان في وقفتهما شئ من الكبرياء المتهدمة توحى احترامك للسيدة الواقفة امامك ، وتوجب عطفك عليها .

ولم يكن في الغرفة شئ لا يتجاوب مع نفسية المرأة الجديدة ، وليس فيها من اثر غريب ، حتى كاد عمر يتعرف الى زفراته التي ارسلها ليلة امس ، ويسمع الى آلامه تباعمه ، لقد تعرفت الاشياء اليه ، فأنس اليها ، وامسى وفي امكانه ان يجد بعض الراحة في مكان سلخ فيه ليلة من

عمره قد تساوى عمراً كاملاً ، فارقتى فوق الديوان مسنداً
رأسه الى وسادة ، ويده الى وسادة ، ويده الى اخرى ، وتطلع
الى عتبة الباب يدفع بنظره الحمل الذي اتقاه عنده ، يريد ان
يغيبه عن عينيه ، وقال في نفسه : رحمة للحمل .

ونظر الى نينا فراها ترمقه بعينها الحالمين ولا تنبس
فقال لها ، عفوك ، لقد اذهلتني نفسي عن كل شيء ، ولولا
لطف القدر لسقطت عياء في الطريق .

قالت : كنت انتظر عودك ، وكان بي مثل اليقين
انك ستأتي ، ولست ادري لماذا ؟

قال : لقد رجعت ، واجدك تقرأين ؟

— صرت اتوق لمعرفة اخبار العالم المترامي خلف جدران
هذا البيت ، وبني نزع الى الهواء الطلق ، الى الحرية ، الى
النور ، لقد سئمت حياة الوحدة هنا ، واكاد اختنق في جو
هذا الحبس ، تبدل على كل شيء منذ ليلة الامس وطالعتني
حياة جديدة ، قد تكون ملائ بالأم واقلق ، ولكنها في
كل حال جديدة ولذيذة ، او تحسب ان هذه الحياة التي
نفثها هنا ، نبيع اجسادنا لمن لا نريد ، خالية من شعور
اللذة ، وقد تخلو من شعور الأم ، ولم لا ؟ حين نرانا مضطرات

ان نصاب كل جلف يقذفه الينا العالم للنسب شهوته . او تحسبها
داعية النعيم ؟ ولكن غفرانك ! قد اكون آذيتك من حيث
لا اريد ، فانما ذاك الفتى الذي جاءني ليلة امس ، دامى الجرح
يحمل المأساة ضاحكاً ، فاشفقت عليه وضمدت جرحه ، وحدثت
على أمله ، هو الذي بعث في تلك الحياة ، فجعلت من هذه
الغرفة التي سمعت سره في هدأة الليل وباركتها آلامه حرماً
لن اسمح بتدنيسه .

— ان الفتى نفسه قد عاد اليك الآن وبؤسه اشد من
امس وأمله اقوى .

واجتذب عمر نينا من ثوبها واجلسها على الديوان . ثم
اخذ يديها في يديه وراح يقول لها بصوت يهزهز الالم :
نينا ، نينا ! ان سري لم يعد خافياً عليك بعد ان سمعته هذه
الغرفة ووعته جذرائها الصماء ، في ساعة من العمر هاذية .
لقد كانت هند المرأة التي احببتها بقوة الشباب ، والمرأة
التي تنقصتها بعسف الانانية ، والمرأة التي حفزتها الى الخيانة
بهاتين اليدين بغرور الجهالة . ان هذا الرجل الوادع مجرم
سفك ، قتل اخنك وجاء يجثو عند قدميك ، ولما يحف دم
الضحية عن اصابعه .

هيا اثارى لأختك ، وانتقي بي لنفسك ، من الرجل
الذي هبط بك الى هذا الدرك ، ولكن لا ، لئن طردتني من
هنا ، فلن اجد مكاناً يحذب علي غير بطن الارض ، ولن
تكوني انت قاتلتي .

لقد اثقلت كاهلي اوزاري ، فطرحتها على عتبة هذا
الحرم ، ودخلت اليك طاهر النفس مطمئناً ، لانتقل بك الى
العالم الذي تتوقين اليه ، فلتغفر المرأة لهذا المذنب الضارع
جنايته على اختها المرأة .

سقط دمعتان حارتان على يد عمر ، فرفع رأسه وتطلع
الى عيني نينا فرأى دمعتين اخراوين طائفتين على شفيري
الهدبين .

*

في مساء اليوم التالي ، عاد عمر جذلاً يحمل الى نينا
البشرى ، قد استأجر لها ولة بيتاً صغيراً يحضنه قاسيون من
خلفه ويقبل على الغوطة بوجهه ، فيشهد جلق تصبح مخضلة
المعاطف ، تتفتح ازوارها بين ضحك الانهار وشدو الاطيار
وتدخل في المساء الاخضر وقد صعدت مآذنها الى السماء
لتصل بين شطري الكون .

وانفق على تأثيثه آخر فلس يملك ، فلو انه احتاج في
غده الى طعام وشراب لما وجد في جيبه ما ينفقه ، ولم الا لشغال
بأمر الغد المجبول ، وقد تمت له رغبات اليوم ، وحسبه من
الدنيا انه كفر عن خطيئته ، وانه انقذ نفسه من جحيمها
وانقذ معها نفساً اخرى .

ما كاد يطأ عتبة البيت حتى استقبلته (الأم) بوجه
متجهم ، ثم قادتة الى غرفتها هي ، وقالت له بصوت في نبرته
هدوء وجد : انك يا عمر ، اغويت نينا وصرفتها عن «شغلها»
منذ دخلت هذا البيت ، وانت تعلم انها تحتاج لأكل وشرب
والسواء لا تنزل عليها مائدة ، وانا ايضاً بحاجة الى مال .
— انها ستترك الليلة هذا المحل الى البيت الذي
اعدته لها .

— قلت لك اني بحاجة الى دراهم ، وهي مديونة لي ، ولا
براح لها من هنا قبل ان تسدد دينها ، بهذا تقضى قوانيننا .
— ولكنها لم تحدثني عن هذا قط .
— سلبها اذا شئت ، ادفع لي فلوسي وبارك الله لك .

*

خرج عمر من عند الام يتعثر بأذياله ، فمن اين يأتيها

بالدراهم وهو لا يملك عشاء ليلته؟ وذهب الى البيت لا يرى
امه واخواته ، بل الى بيتته الصغير ، الذي بذر فيه امواله
وجمع احلامه ، وارقتى فوق اول مقعد وصل اليه ، واخذ
يردد بصوت عليل لا يسمع الا نفسه :

المال ، المال ، ان الشيطانة بحاجة الى مال ، ما اهون
الذهب المكنوز تحت ايدي العجائز القبيحة ، وما اعزه حين
يراد لدفع الخطب ، ثم نهض من مجلسه وقد طفق صوته
يرتفع قائلاً :

« ما كنت احسب ان الدنيا تنطوى على مثل هذا »
« الظلم ، اتبيع المرأة جسدها لتقتات بشمنه ، فتخرج من »
« صفقتها جوعانة ومديونة ، لتاجرة عجوز تراي بعفاف »
« البنات وعارهن ، بجماهن وقبحهن وباقدارهن من يمن ومن نحس »
« على السواء ، الا بسئت التاجرة ! لقد حالت اللعينة بيني وبين »
« نينا التي تنتظر اوتى كما ينتظر المؤمن اوبة المخلص »
« سيطول انتظارها الليلة حتى تقنط ، فيشملها الاسي »
« ويشد بها الالم ، فتلعني هي الاخرى رباه ! هل خلقتني »
« لا كون سبباً في بؤس من احب وفي شقائه ، ولم خلقتني ؟ »
« قالت لى هند : فليكن اثم جناياتي عليك ، فماذا ستقول »

«نينا، الآن علمت اني اخرجت كلا من المرأتين من محيطها»
«فقتلت الاثنتين، رباه ! اقسم ما اردت شرأ بهما ،ولكنها»
«الانانية ، احببت نفسي النهمة ، فنجرت على قدميها اله»
«الحب الذي تعبدته ، ولما لم يروها دمه ، ورأيتها تبكيه»
«كالطفل الذي فقد دميته رحت اجبل لها بيدي من»
«حشالات الحياة ، الها صنا ، ما كدت أسويه حتى جاءت»
«العجوز فضربته بكفها اليابسة فتحطم ، ها ان يدي»
«فارغتان من كل شيء يصطفقان أسى ولوعة هند ، هند!»
«رحماك تعالى الي ! ارجعي الى عمرك ، ها انذا اركع»
«طالباً عفوك ، وامد لك ذراعين طالما ضمالك ، بالله كفي»
«عن هذا الضحك الساخر ، ويلاه ! لقد هربت . وانت»
«نينا ! لم البكاء ؟ ان الدمع الذي تذرفينه يهز نياط قلبي»
«فكفكفي دمعك ، اني آت اليك الليلة ، بل الان»
«أرأيت كيف افى بالوعد ، الويل لك ايها العجوز !»
«اذهبي من طريقي ، تريدن دراهمك ؟ الدراهم تتكلم»
«فاسكت يا قلبي ، الدراهم ! قه قه قه ، ايها المراية الحمقاء !»
«لئن لم تخلى لي الطريق لأهبن رأسك برصاصة من هذا»
«المسدس ، عمر ، عمر ! أنت ايضاً هنا ، اراك اشعث أغبر»

« دامي العينين ، مزبد الشدقين ، لأنك أصل الشقاء ومنبع »
« البلوى ، فإلى أين تلحق بي ، يجب أن تموت ومن يدي »
« هذه تموت »

☆

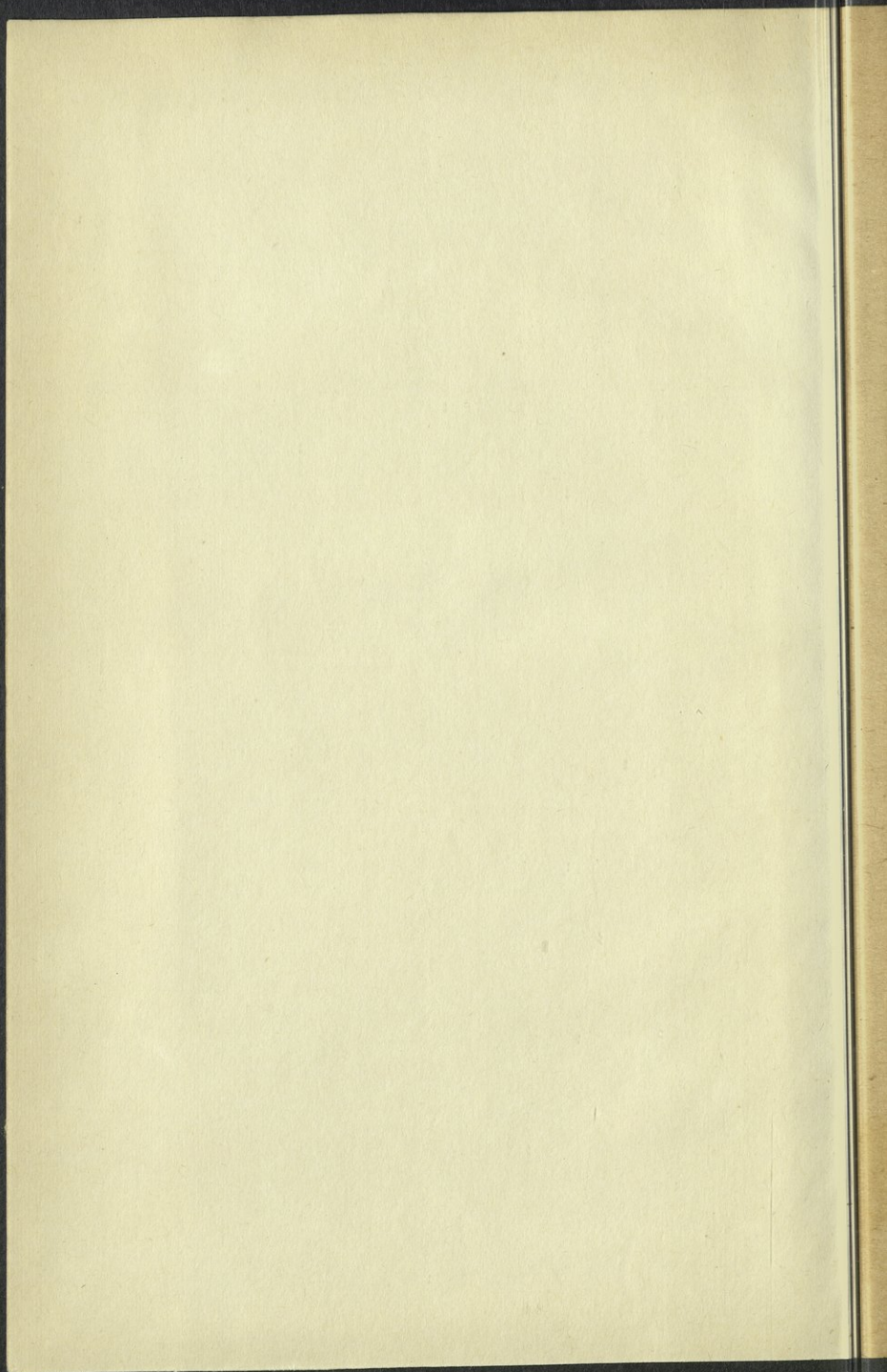
طلعت شمس اليوم التالي متأخرة ، وشرعت العصفير
تغرد على العرش ، وشرحت القطعان في المراعي .
واخذت قافلة الحياة تسير كأمس ، وعمر يجمع عن
الأرض حطامة المرأة التي صرعتها رصاصته في لحظة مجنونة .

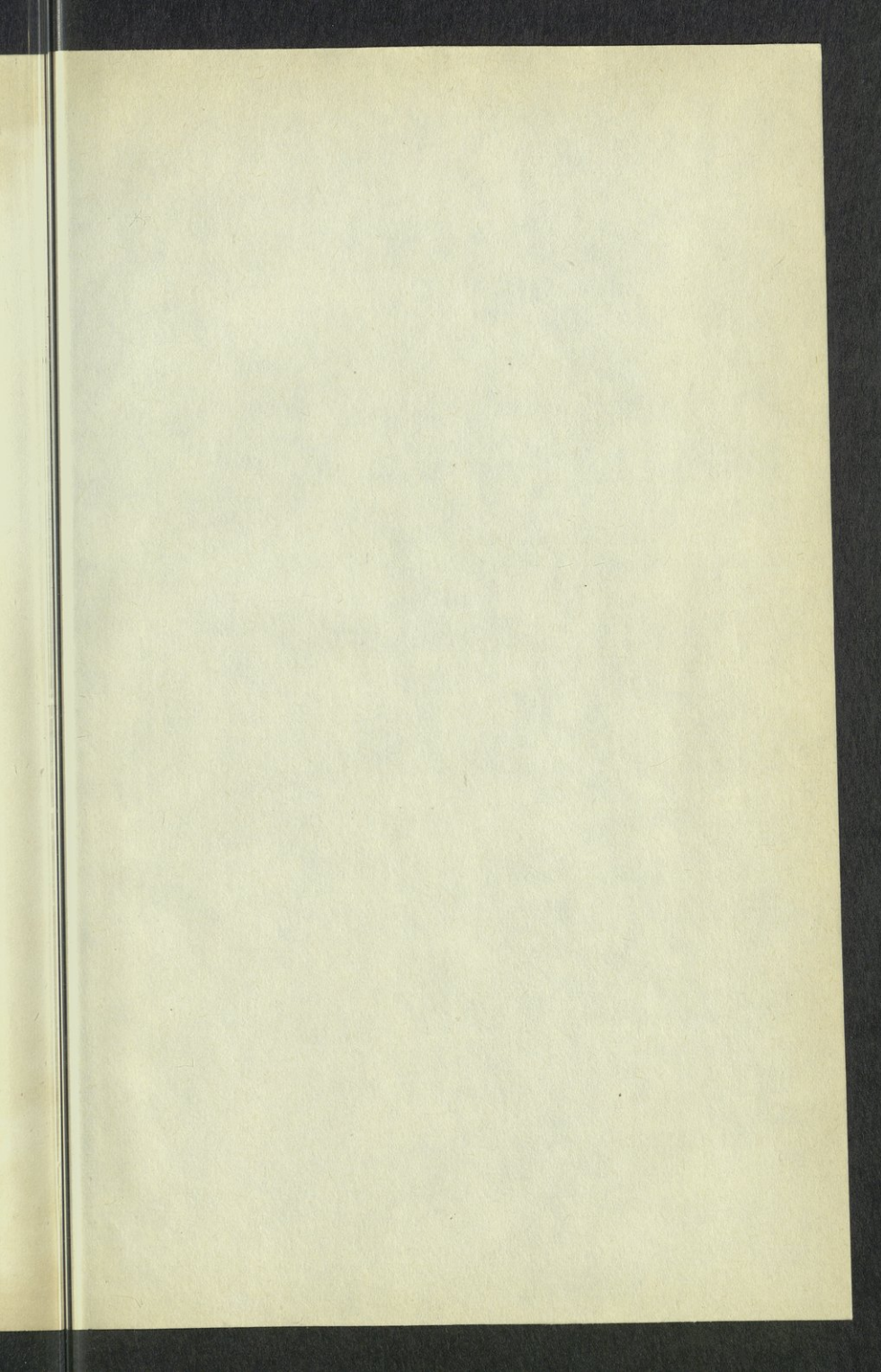
طبع من هذا الكتاب الفان واربعمئة نسخة على

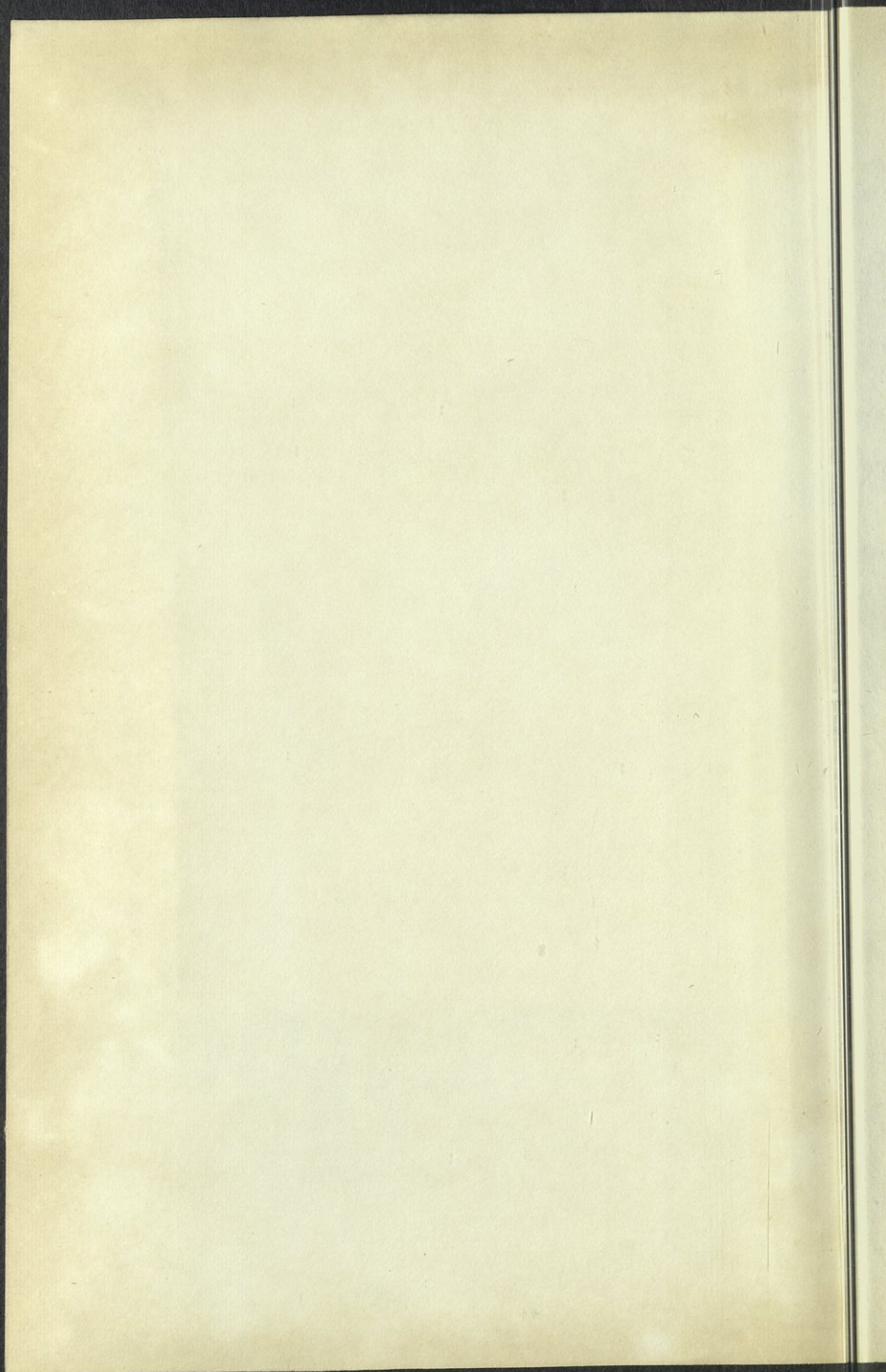
• طبعة الاتحاد •

بيروت * تجاه التياتر الكبير

في ١٠ ايار ١٩٣٧



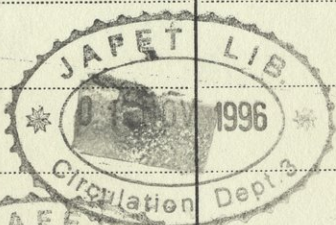




DATE DUE

JAFET LIB

25 APR 1978



حيدر، ناصي

عمر افندي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037833

000-77
A/110A

